خطيبتي العذراء حامل

الكتاب : خطيبتي العذراء حامل

الكاتب : سيد داود المطعني

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : سيد داود المطعني

الطبعة : الأولى ٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2019/23362

الترقيم الدولي :978-977-6727-89-2

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

خطيبتي العذراء حامل

رواية

تأليف

سيد داود المطعني

السّعيد

للنشر والتوزيع

الإهداء..

إلى الحب الأول الذي لم ينتهِ، والعشق الذي لن يزول، والروح التي تتصل بروحي من قبل أن يتلحف جسدي نور الوجود.
إليك يا أمي..

المقدمة..

بينـما أنـت سـاكن، هـاديء، مسـتقر النفـس، تعانـق السـعادة، أو تغازلهـا مـن بعيـد..

تسـمع أصـوات عاليـة، فتبحـث عـن الرعـد لا تجـده، وتهتـز الأرض حولـك، فتبحـث عـن الزلـزال، فـلا تجـد للزلـزال مـكان، وتـرى عينـك لهـب النـيران يتفجـر، فتجـري تتفقـد البراكـين، فـلا تعـثر عـلى مشـهد الـبركان.

ما الذي أصابك فجأة؟ ..

تتـوالى عليـك المصائـب مـن حيـث لا تـدري، وكل مصيبـة هـي ألعـن مـن أختهـا، تـكاد تفقـد عقلـك .. تـكاد تسـقط مـن هـول مـا أصابـك، لا تجـد المفـر..

وبين هذا وذاك .. تتمسك بالبقاء، تقاوم ما أنت فيه، تهدأ قليلا..

تعطي لعقلك شارة القيادة، ليتحكم وحده في ما أصابك..

تغمـض العـين عـن النـاس، وتصـم الأذن عـن كلام النـاس، وتتجاهلهـم في الذهـاب والإيـاب..

وفجأة..

تنطفـيء ألسـنة اللهـب، وتسـكن الأصـوات، وتتوقـف الأرض عـن الاهتـزاز، وتبتسـم لـك الدنيـا..

وتشعر كأن أرق الكائنات يقول لك..

_ قد تم حل مشكلتك بنجاح .. شكرا لصبرك..

هكـذا هـي الحيـاة .. تبتسـم لمـن يتريـث، ويصـبر، ويفكـر، ويتجاهـل كلام النـاس..

سيد داود المطعني

لا أدري لماذا يخفق قلبي هكذا، وأنا في طريقي لزيارة خطيبتي في بيت أسرتها، وكأنها المرة الأولى، ما سر هذا القلق الذي يراودني؟ والتوتر الذي يهز جوارحي؟.

قد اعتدت زيارتها كثيرا خلال تلك الشهور التي تلت الخطوبة، وأسرتها تستقبلني استقبالا يدخل السرور علي قلبي، فهم يعلمون تماما أني أحب سلمي أكثر من نفسي وروحي، وعلي يقين أني أسابق الزمن لأحقق ذلك الحلم الذي ينتظره الجميع، وهو إتمام الرباط المقدس بعقد القران، ليصبح كل واحد منا ملكا للآخر، دون ترتيب موعد مسبق للزيارة مرتين شهريا.

تلك الزيارة التي تجعلني أضيع وقتا طويلا في الإعداد لها، وأنا علي أحر من الجمر شوقا لرؤية نصف الروح التي طالما اشتقت لرؤيتها، وفي كل مرة، أبدع في شراء هدية مختلفة عن سابقتها لخطيبتي، تلك الهدايا التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكنها تدخل السرور على فتيات هذا الجيل لا سيما المخطوبات.

أشتري مرة عروسة بلاستيكية ترتدي فستان زفاف، وأخرى دبدوب مصنوع من القطن ومطرز باحترافية عالية، ولم أفكر مرة واحدة في شراء باقة من الورد للتعبير عن حبي لها ظنا مني أن الورد ليس له قيمة، ولن يفيدها في شيء، وكأن العرائس والدباديب تصنع لها ما تريد وقت الحاجة إليها .. يا لها من عادات يقلد فيها بعضنا البعض دون تمييز.

وفي يوم الزيارة ..

تعطل أسرة خطيبتي ارتباطاتها لتنتظرني، رغم أني لا أخصهم بزيارتي، ولكنها العادات التي تفرض عليهم انتظاري، إما للترحيب، او فرض رقابتهم على لقائي بها.

دائما ما أذهب إليهم، أكاد أطير من فرحتي بتلك اللحظات النصف شهرية التي تجمعني بخطيبتي سلمى، وأنا أدندن أغنية هقابله بكرة وبعد بكرة، وأكرر كلمات أغنية بتوحشني وأنا واياك، وغيرها من الأغاني التي تفرض نفسها علي لساني وقلبي وعقلي، فأسمعها من موجات صوتي دون أن أرتب كلماتها، وأنا حينها أسعد إنسان علي وجه البسيطة كلها.

حتي سلمي نفسها، التي لا تترك جهازها المحمول من يدها، وهي تتصل بي مرارا وتكرارا لتسألني أين وصلت؟ ولماذا تأخرت؟ يدفعها الشوق لسماع صوتي، وتستعجل قدومي لتراني .

لا تترك كبيرا ولا صغيرا من أفراد أسرتها، إلا وتبلغه أني قادم الآن، أنا علي بعد كيلو متر من منزلهم، بل أصبحت المسافة نصف كيلو متر، بل اقتربت عشرين مترا.

تري أمها الفرحة في عينيها، وهي تهز يديها المقبوضتين علي الهاتف المحمول، وتقول باقي من الزمن خمس دقائق، وينير علاء منزلنا.

وأنا بين كل هذا، أسمع صوت نبضات قلبي، تفوق محرك السيارة في ضرباتها المتتالية، أود سؤالها عن سبب كل هذا .. يداي ترتعشان .. وأصابعي تهتز كمن يقف على أطراف البرج.

فرحة بلهاء، أو عشق بجنون، أو شوق فاق الخيال، أو كل هذا هو سبب ما يلم بي.

توقف يا قلبي عن النبضات الخائفة، واهدأي أيتها الأعصاب المرتجفة، واعلمي أني ذاهب إلي سلمي التي ترق أيها القلب لسماع اسمها، وتطرب لصوتها، وتقضي أجمل أوقاتك قريبا من قلبها.

ما بك أيتها الأيادي المرتعشة؟ وكأنك لا تدري أنك في طريقك لمصافحة يدها، التي تسكن روعك حين تصافحك، وتنعش ملمسك لو تحسست ظهرك.

وصلت إلي منزل أسرة خطيبتي ودخلت عليهم وأنا في قمة ارتباكي، عانقت خالد شقيقها الثلاثيني العمر، وصافحت والدتها الخمسينية الهادئة، وقبلت رأس والدها الرجل الطيب الذي أحبه لسماحته ونقاء قلبه، وسلمت علي سلمى سلاما عابرا ك_أني لا أعرفها، صافحتها مصافحة سارقي النقود بسرعة البرق، حتي لا تراني تلك الأعين التي تراقبني داخل أروقة ذلك البيت الذي يسلط الأضواء علي الزائر النصف شهري لمنزلهم.

دخلت كالعادة إلي الغرفة الداخلية الملحقة بالصالة، والتي يستضيفون فيها الأقارب المقربين فلا هي غرفة جلوس خارجية للضيف الغريب، ولا هي غرفة لنوم فرد من أفراد المنزل وكأنهم أعدوها حين أعدوها لاستقبالي أنا فيها، لتكون الزنزانة الانفرادية التي أقابل فيها خطيبتي، وسط أسرتها حراس المكان.

كانت الأسرة تلتف حولي جميعها، حسب الروتين المتبع في كل الزيارات، ثم يستأذن جميع أفراد الأسرة تباعا، حتي تظل أم سلمي هي الوحيدة بيننا، إلي أن يأتي وقت تناول طعام العشاء، فتستأذن الأم خارجة إلى المطبخ، وتشير لخالد ووالده بمتابعتنا من الصالة الخارجية التي نجلس في مقابلها تاركين باب الغرفة مفتوحا عليهم تنفيذا لأعراف مجتمعي.

خرجت والدة خطيبتي من الغرفة وأتاحت لي فرصة الانفراد بشق قلبي الذي ينتظرني، وبنور عيني الذي يراقبني، وبمعشوقة روحي التي تروي ظمأي حين أركن إليها في لقائي بها.

استدرت بجسدي تجاهها غير مبالٍ بمن بالصالة من أسرتها التي تتبادل الأدوار في المرور علينا لفرض حالة من الانضباط علي خلوتنا المكشوفة.

نظرت إليها نظرات حائرة تبحث عن شيء ما في عينيها، أو أبحث أنا عن إجابة لتلك التساؤلات التي تخيفني من زيارتي.

_ سلمى! هي عيلتك بتتضايق من تأخير جوازنا؟

_ إطلاقا، دول كمان فرحانين جدا انك اشتغلت محاسب في بنك أجنبي.

_ ساعات بحس إنهم عايزين يقولوا لي يا إما تنجز أو تبطل زيارات.

_ تبطل زيارات ازاي يا علاء مش فاهمة ؟

_ يعني بيتضايقوا من زياراتي الكثير ليكي.

_ كتير إيه بس ده انت بتيجي مرتين في الشهر وبصراحة بتوحشني جدا يا علاء.

_ والله بتوحشيني بمجرد ما أمشي من هنا يا سلمي، ببقي عايز أرجع تاني، أو استفز الأيام وأخليها تدخل مسابقة جري قصادي علشان تمشي بسرعة وآجي تاني.

_ ان شاء الله ربنا يقرب البعيد واحنا نخلي الأيام تمشي براحتها تاتا تاتا.

_ عموما أنا قررت أؤجر شقة في منطقة شغلي، وهحاول أسحب قرض أفرشها بيه، وكله يهون علشان اللحظة اللي بنحلم بيها.

_ متشيلش نفسك هَم أكبر من هَمَك، وكل حاجة ليها ساعة.

طرقت أم سلمي الباب ونادت علينا لتناول وجبة العشاء، التي لم أذكر أني انفردت فيها بخطيبتي طيلة الشهور الماضية، و كم حاولت ذلك ولكن نظرية أسرتها تقول أننا الآن نعيش فترة خطوبة ولم نعقد بشكل رسمي، وقد تتعرض الخطوبة للفسخ والإلغاء، ومن باب أولى أن يحتفظوا بتلك الحيطة في التعامل، وذلك التضييق في اللقاء، حتي يتم الأمر لآخره وتتم مراسم الزواج.

لا أنكر أني أغضب كثيرا لتلك الرقابة، التي يفرضونها علي وجودي داخل البيت، حتي أنهم يرسلون أحيانا ابن عمها الطفل الذي لم يتعدي الثانية عشرة من عمره، ليلقي نظرة علي طبيعة جلستنا داخل الغرفة المفتوحة، ولكني أشعر بفرحة غامرة بعد رحيلي، لثقتي بأني سأتزوج من فتاة أحببتها ولم تنظر لغيري يوما ما، تلك نظريتي إن أخطأت فيها أو أصبت فهي مصدر سعادتي.

قمنا لتناول طعام العشاء الذي يعد بمثابة رسالة تذكير، بأن موعد الانصراف قد اقترب، فلا أنفرد بحبيبتي بعدها ثانية، إلا دقائق تجمعني بالأسرة كلها، ونحن نحتسي الشاي ليساعدنا على هضم ما أكلناه على مائدة العشاء، ويساعدهم على صرفي من البيت بعد انتهاء الكوب المخصص لي.

جلسنا على العشاء جميعا، ولم يكن خالد موجودا حينها، فجلس عن يميني والد سلمى وعن يساري الطفل وليد ابن عمها، وفي مقابلي كانت سلمى بجوار والدتها.

تناولت سلمى قطعة من اللحم ووضعتها فوق الأرز ومضغت منها طرفا صغيرا ولم تدري بالدنيا حولها إلا وهي تستفرغ كل ما بداخل معدتها من طعام على المائدة، ونهضت مسرعة إلي الحمام لتفرغ ما تزاحم على صدرها بعيدا عنا.

لم تتقدم سلمى خطوة واحدة ناحية الحمام حتى سقطت على الأرض مغشيا عليها، لا تدري بالدنيا حولها، ولا تستطيع حتى أن ترفع عينيها التي أغمضتها رغما عنها، لتغوص في عالم آخر، بعيدا عن عالمنا الذي نراقبها من خلاله.

أصابتني حالة من الذهول، ولم أشعر بنفسي وأنا ألتفت حولي كالمجنون، عن يميني وعن يساري، لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل في ذلك الموقف، الذي أتعرض له للمرة الأولي في حياتي.

ولم يكن بالمكان شابا قويا غيري، فأبوها رجل ستيني العمر، وأمها شاخصة البصر إلى ابنتها لم تستطع سوي إصدار تلك الصرخة النادبة المستغيثة، والطفل وليد لا يكرر سوى كلمة سلمى سلمى!.

أخرجت هاتفي المحمول من جيبي واتصلت بوحدة الاسعاف القريبة لتنقذنا مما نحن فيه وجثوت علي ركبتيَّ ورفعت سلمى وتحركت بها ناحية الكنبة بالصالة، ووضعتها عليها، وحاولت إفاقتها ولكن دون جدوى.

أحسست بكف الموت تقبض عليها لتجذبها مني، فقبضت على يدها اليسرى، كأني أمنع الموت عن خطفها مني.

نظرت إلى عينيها المغمضتين وبينهما الموت، فشعرت بتعاسة الحياة ، بل لا حياة وعين حبيبتي لا تراني، ولا ترى الحياة.

وجدتني أصرخ داعيا، ربي لا تحرمني منها، أرجوك لا تسلبني من استشعر حلاوة العيش بوجودها، يارب لا تحطم قلبي وقلب أبويها، يارب دعها لي دعها لي دعها لي.

كنت أدعو بالفصحي تارة، وبالعامية أخرى، ولا أعرف ماذا أقول، وشعرت بمرارة العيش وأنا أراقب نصف روحي وهي تفقد الوعي وتغيب عنا، لا أدري إن كان غيابها مؤقتا ستعود بعده، أم

أنه رحيل إلى العالم الآخر لتتركني أقاسي اليتم من بعدها، كيف لا أصبح يتيما وقد وجدت فيها أمي؟ كيف لا أتذوق المرار بعدها؟ وأنا الذي وجدت حلاوة الحياة في حلاوة روحها، ونقاء قلبها، وبراءة حبها لي، وعطفها الذي يشعرني بطفولتي، التي باغتتني لأول مرة بعد رحيل أمي.

انفجرت في البكاء، ولم أرَ ماذا يفعل أبوها، ولم أسمع سوي صوت أمها التي تنوح وتبكي.

حضرت سيارة الإسعاف، ونقلنا سلمى إلي المستشفى، وصرخت في الأطباء صرخات طفل يستغيث بهم لينقذوا أمه، أحاول قراءة التشخيص في عيون الطبيب الذي يوقع الكشف عليها، حتي إذا ما عقد حاجبيه وأغمض عينيه، شعرت بغلق النافذة التي أتبين من خلالها الأخبار الكامنة في صدر حبيبتي، التي بدأت تشهق وتزفر بقوة، ولكن لا تكفيني حركة رئتيها، كم أود لو أنتزع تلك السماعة من الطبيب لأسمع نبضات قلبها فأطمئن بنفسي عليها.

***

قام الطبيب بحقنها بأمبولة جعلتها تفتح عينيها، وتلتفت إلينا وهي غير قادرة على النطق

فاكتفت بتوزيع النظرات علينا، لينال من نظراتها كل واحد منا، بقدر اشتياقه إليها وخوفه عليها، وكأنها توزع علينا حبوبا مسكنة، أو أقراصا مهدئة، لتحول قلقنا إلى سكينة، وظمأنا إليها إلي إشباع وروية.

رفع الطبيب الشاب رأسه واستدار يلتفت إلينا وهو مبتسم يحمل البشرى بداخله ليفاجئ بها مرافقي الحالة التي قام بفحصها.

_ مالكم قلقانين كده يا جماعة، ده انتوا المفروض تفرحوا وتسمعونا زغروطة

_ زغروطة! زغروطة ليه يا دكتور؟ هي سلمى مالها؟

_ ألف مبروك يا جماعة، المدام حامل.

_ بتقول إيه؟!

_ بقول لحضرتك المدام حامل، ألف مبروك.

لم أكن أفهم ما قاله في البداية لأن عقلي لا يصدق ما يسمع، ولكنه يتكلم وهو يعي جيدا ما يقول.

استدرت عن يميني لأرى والديها ينظران لبعضهما البعض وهما يتصببان عرقا، وينظرون للطبيب نظرات حائرة متسائلة، مستنكرة، يعلوها العجب، ويكسوها التكذيب، وتتخللها السخرية مما يقول الطبيب الشاب.

نظرت إليهم لأبحث عن إجابة لحيرتي في وجوههم، فوجدتهم ينظرون إليَّ نظرات السائلين.

_ حامل ازاي يا دكتور؟ انت متأكد من الكلام اللي بتقوله ده؟

_ جرى إيه يا أستاذ هو انت هتعلمني شغلي ولا إيه؟

_ يا دكتور دي خطيبتي مش مراتي، قول لي أي حاجة غير إنها حامل.

اندهش الدكتور ولم يستطع ابتلاع ريقه، وبدا مرتبكا وقد شاركنا الدهشة هو الآخر، وعاد إلى سلمي التى بدأت تستفيق، وتركز مع من حولها، وأعاد توقيع الكشف الطبي عليها ثانية، وقام مرتبكا يستدير بظهره، ويجفف عرقه ويهز رأسه بكل أسى.

_ أنا آسف جدا يا جماعة، الآنسة حامل.

خرج الطبيب منصرفا عنا بسرعة، ليتفادى الحرج، لم يستطع البقاء لحظة واحدة بعد ما تأكد من حمل سلمى، وعرف أنها

خطيبتي وليست زوجتي، خرج تاركا خلفه مشهدا صامتا، لأبوين صارا مكلومين ترتسم على ملامحهما الشيخوخة المفاجأة التي أصابتهما لسماع ذلك الخبر.

فسرعان ما اعتلت التجاعيد وجوههم، وانتشر الحزن بين جفونهم، بل تقرحت الجفون كأنهما يبكيان منذ فترة طويلة من الزمن.

خرج الطبيب ليتركني واقفا على قدميَّ تائها، لا أدري إن كانت رأسي هي من تحمل جسدي أم أنهما أقدامي المرتعشة هي التي تحملني .

أي مصيبة تلك التي ألمت بي في يوم كنت أتوجس خيفة منه منذ الصباح؟ وكأن قلبي يسبقني إلى ذلك الموقف، فزادت نبضاته مبكرا.

نظرت إلى أسرة سلمي فوجدت أبصارهم شاخصة إليَّ بنظرات عتاب قاسية يخالطها شيء من التوسل والانكسار، وكأنهم يتهمونني بخيانة ثقتهم فيَّ ووقوعي في بئر الخطيئة مع ابنتهم التي سعدوا بخطبتي لها. لم أشعر بنفسي وأنا أنظر لوجه خطيبتي نظرات إتهام واحتقار، وقد فتحت عينيها على ذلك الخبر الأليم، واستفاقت دون أن تنبس ببنت شفة، لكنها تنظر إليَّ نظرات اندهاش وحيرة تتخللها البراءة، نظرات دامعة تنصب عمودية على عيني، في محاولة دفاع صامتة يخرسها الأمر الغريب، الذي لم نكن نحسب له أو نتوقعه، بل لا يخطر على قلب بشر في الدنيا كلها.

لا أدري كيف أحسن التصرف في ذلك الموقف، وأنا الذي أضع الثقة العمياء في سلمى، وأقرأ بين عينيها حروف تكذيب لذلك التشخيص، بل إن عقلها قد طار مثلي، لا تتقبل ما تسمعه، فلو أنها مخطئة فعلا لصرخت تُكَذِّب ما تسمع، أو لحاولت التغلب

على الموقف بالصوت العالي حتي تهوِّن من حدة الأمر، لتكسب جولة كتلك الجولات التي تربح بها المذنبات مهلة للعقاب من الوالدين بسبق التحقيق الأسري بصرخات الدفاع.

قلت لهم أني لا أثق بتشخيص الأطباء الشباب داخل المستشفيات الحكومية، ولا بد أن نعرضها على الدكتورة ناهد السعدي طبيبة النساء والتوليد التي نعرفها ونثق في تشخيصها، وهي أكثر من يقضي في أمر سلمى، حتى نكون على يقين قبل أن نتبادل النظرات القاسية، والاتهامات الصامتة، فشيطاني يوجه التهمة لسلمى بالخيانة، وأسرة سلمى تتهمني أنا بسوء الفعل، والمسكينة لا تستطيع إنكار التهمة عن نفسها، أو حتى إثباتها.

***

خرجنا جميعا من المستشفى، وتوجهنا إلى عيادة الدكتورة ناهد السعدي، وشرحت لها الأمر قبل كل شيء، فقررت إبعادي عن غرفة الكشف ما دمت خطيبا لها ولست زوجها، ثم استدعتني للدخول إليها ثانية، فوجدت سلمى تجلس على سرير الكشف واجمة، وقد تحول لونها للأصفر الفاقع، وأبواها ينظران إلى قدميَّ اللتين تسرعان الخطى ناحية الغرفة، والدكتورة ناهد تنظر إليَّ نظرات ساخطة.

_ إيه الأخبار يا دكتورة ناهد؟ طمنيني.

_ الأخبار كلها بتشير إلى إنك إنسان خاين للأمانة، إنسان وضيع وعلى غير قدر من المسئولية تجاه الآخرين.

_ ايه الكلام اللي بتقوليه ده انت يا ست انت؟

_ بقول لك اللي سمعته، وعيب أوي تنكر انك اتسببت في الجريمة دي.

_ ياريت تركزي يا دكتورة شوية وتشوفي نفسك بتقولي إيه.

_ هتعمل لي فيها شريف، وانت جريمتك فاضحاك.

عرفت من كلماتها وحدتها معي، أنها تشك أني أوقعت بسلمى في الخطيئة، وأنها حامل بالفعل، بل أنها تظن أني أنا المجرم.

نظرت إلى سلمى، ثم عاودت النظر إلى الدكتورة ناهد، وأنا واجم الفكر.

_ أفهم من كلامك يا دكتورة إن سلمى حامل فعلا؟

_ وتفهم كمان إن سلمى عمرها ما اختلطت بحد، ولا طلعت هنا ولا هنا، وأتمنى تطلع راجل وتصحح غلطتك.

وهنا انفجرت سلمي، وصرخت بصوت عالٍ لأول مرة منذ سقوطها على مائدة العشاء مغشيا عليها، تكلمت سلمى وهي تبكي بحرقة وقد تحشرج صدرها.

_ مستحيل أكون حامل .. مستحيل.. طاب ازاي؟ هكون حامل ازاي؟

_ انتي متأكدي م اللي بتقوليه ده يا سلمى؟

_ متأكدة يا علاء، والله متأكدة، مستحيل يا دكتورة، مستحيل، أرجوكِ قولي كلام غير ده

وقفت الدكتورة ناهد حائرة، وتقدمت ناحية تلفزيون الفحص تفتحه، فتقدمت إليها رافعا صوتي.

_ دكتورة! بعد إذنك تتأكدي من عذرية سلمي.

_ انت بتقول ايه يا بني آدم انت؟

_ اللي سمعتيه يا دكتورة، أنا عايزك تعملي لها كشف عذرية.

_ أنا هعمل لها اختبار حمل، وهكشف عليها بالتلفزيون.

_ يا دكتورة أنا المسئول عن الحالة، وبقولك ياريت تعملي لها كشف عذرية، أنا متأكد من سلمى كويس جدا، أرجوكِ بلاش

تضغطي على نفسيتها أكتر من كده.

نظرت الدكتورة ناهد إلى سلمى التي هزت رأسها بالإيجاب توافقني الرأي، فوالداها يقفان مسلوبا الإرادة، لا حول لهم ولا قوة يتابعان الأحداث ويترقبان النتائج، فإما مصيبة تنكس رؤوسهم، أو طوق نجاة يسعدهم.

طردتني الطبيبة من الغرفة، وأخرجت والد سلمي معي هذه المرة، فلا يجوز له حضور تلك الموقعة، وأبقت على والدتها معها، وقامت بتوقيع كشف العذرية على سلمى التي وصلت لحالة يرثى لها.

دخلت هذه المرة إلى غرفة الكشف، فوجدت وجه سلمى قد توزعت كل إحساسات الدنيا على أجزائه، وأضحى لوحة متعددة الرسومات، فلا تدري إن كان باسما أم شاحبا، أم مندهشا.

كان وجه سلمي غريب الملامح، يصعب عليَّ قراءة الموقف من خلال نظرة وحيدة ألقيها عليه كعادتي، فلم أكن أدري إن كانت تلك الملامح تلقت أخبارا سارة، أم أن المصائب قد ازدادت مصيبة أو مصيبتين بعد توقيع كشف العذرية.

_ طمنيني يا دكتورة.

_ حاجة غريبة فعلا يا أستاذ علاء!

_ بدون مقدمات يا دكتورة أرجوكِ، إيه الأخبار.

_ الآنسة سلمي لسة عذراء.

_ الحمد لله رب العالمين، يعني مش حامل؟

_ هي عذراء .. بس للأسف حامل.

وهنا اختفت نظرات الاتهام ، وارتسمت ملامح الدهشة وعدم الرضا ، والخوف من عواقب الموضوع.

_ ازاي عذراء وازاي حامل يا دكتورة؟!

_ ده اللي شايفاه قدامي ومش هعرف أفيدك بأكتر من كده.

_ يا دكتورة قولي كلام يدخل العقل، هو انت كده بتطمنينا ولا بتزودي حيرتنا.

نظرت الطبيبة لوالد خطيبتي ولأمها الدامعة منذ لحظة خروجنا من البيت، ثم رفعت بصرها إلى سلمي قائلة:

_ كل اللي أنا متأكدة منه إنها حامل وهي عذراء بس، وتقدر تعرضها على أي دكتور زميلنا وتتأكد بنفسك من كلامي.

كان الأمر مثيرا للدهشة بالنسبة لي ولأي شخص يسمع كل هذا الكلام عن تلك الحالة، كيف تكون سلمي حامل وهي لم تزل عذراء، وأنا لم أشك لحظة واحدة في عذريتها وبراءتها من أي اتهام وجهته لها نظرات أبويها، أو حتى نظراتي عند الصدمة الأولى.

كيف تكون سلمى حامل؟ ولم نسمع في تاريخ الإنسانية كلها عن عذراء حملت طفلا سوى السيدة مريم عليها السلام، وكان حملها معجزة سماوية لتهب للأرض مسيح الهدي عليه السلام الذي نطق في المهد صبيا، فلم يكن حمل السيدة مريم أمرا تم بالصدفة، ولكنه أمرا يخرق به رب السموات والأرض نواميس الكون، ليرى أهل الأرض عظمته جل في علاه، لعلهم يرشدون.

***

ذهبنا إلى الدكتور راشد عبد النبي وهو أخصائي النساء والتوليد المشهود له بالكفاءة في الحي بأكمله، وكان يحب المزح بالكلمات في تشخيص الحالات، ليمتص الخوف من بعض الحالات التي تُعرَض عليه يوميا.

كانت العيادة ممتلئة على آخرها بالسيدات الحوامل من مختلف الأعمار ودرجات الحمل، فمنهن من تحمل الجنين الأول، ومن تحمل الثاني أو الثالث، ومنهن من بلغت من العمر أربعين عاما وتنتظر مولودها السابع، رغم أنها تحمل السادس بين ذراعيها طفلا رضيعا لم تفطمه بعد.

كانت الفرحة تملأ وجوه السيدات ومرافقيهم من أقاربهم، الكل يتبادل الهمسات والضحكات ومداعبة الأطفال، اللذين جعلوا من صالة الانتظار بالعيادة مدينة للملاهي، أو ملعبا لكرة القدم ومنهم من جعلها موقعا لتصوير أحد الأفلام السينمائية التي تعرض ملحمة تاريخية لإحدى المعارك القديمة؟.

وأنا أرى ذرات الهواء التي تبعثر السعادة على وجوه الحاضرين بالعيادة، تأبى أن تطوف حول وجوهنا، لتبدل تجاعيد الشجن التي اعتلت أنوفنا، لملامح سعيدة كهؤلاء الحوامل ومرافقيهم.

كل الحالات التي تنتظر موعد توقيع الكشف الطبي عليها، تنتظر أخبارا سارة لتحديد تلك اللحظة الهامة، التي يسجلوها في ذكرياتهم بحروف السلم الموسيقي، فجميعهم في انتظار ما يجعلهم يتلقون تهنئة كل المحيطين بهم.

أما أنا .. ليت أمي لم تلدني، ليت عيني لم ترَ الحياة، ليت روحي فارقتني قبل هذا، ليتني أفقد الثقة في أخلاق سلمى، حتي أكون قادرا على التخلي عنها، وأهرب من تلك المشكلة، ليت كل هذا قد تحقق مسبقا، ولكن أمي للأسف قد ولدتني، وعيني رأت الحياة ولم تزل تراها، وروحي ترافقني في مصيبتي وتختنق من آلام ما ترى عيني، وسلمى هي المخلوقة الوحيدة التي أضع فيها ثقتي العمياء بعد أمي، ولن أتخلي عنها أبدا، ولو خسرت عيني

وروحـي وكذلـك خـسرت الحيـاة.

أمـا سـلمى .. فعيناهـا تراقبنـي، وروحهـا تحلـق بعيـدا عـن المـكان، وعقلهـا شـارد لا أعـرف أيـن وصلـت بـه أفكارهـا، وقدميهـا تتحسسـان الأرض تناشـداها أن تنشـق لتبتلعهـا فتخفيهـا عـن ذلـك المشـهد الـذي لم تتخيـل نفسـها فيـه للحظـة واحـدة في حياتـه.

أمـا والدهـا.. جالـس في مكانـه لا يسـتطيع التحـرك، وكأنـه مصـاب بشـلل كلي في شـتى أجـزاء جسـده إلا رأسـه التـي تتحـرك يمنـة ويسـارا، يـرى زبائـن العيـادة الذيـن تتعـالى ضحكاتهـم، تظهـر الفرحـة عـلى وجوههـم، وينظـر لسـلمى الواجمـة التـي بـدت وكأنهـا سر تعاسـته، ويدقـق النظـر في وجهـي مـرة تـلي الأخـرى، يناشـدني صامتـا ألَّا أتخـلى عنهـم في مصيبتهـم..

وأم سـلمى.. تبـدو وكأنهـا كتلـة سـحاب جامـدة في كبـد السـماء، لا تتحـرك كـما يتحـرك السـحاب تتسـاقط منهـا الأمطـار مـن ثغرتـين فيهـا، أمـا الأمطـار فهـي دموعهـا، وعيونهـا هـي الثغـرات التـي ذابـت معالمهـا، حتـى بـدت وكأنهـا ثقـوب في حجـر قديـم تتفجـر منـه الميـاه، لا تحـرك سـاكنا، ولا تُسْـكِن مُتَحَـرِّكا، تنتظـر رصاصـة الرحمـة مـن الدكتـور راشـد، إمـا يطلقهـا بإثبـات الحمـل أو نفيـه، وكلاهـما رحمـة مـن عـذاب الانتظـار.

سـمعنا رنـات جـرس غرفـة الطبيـب تسـتدعي التمرجـي المسـئول عـن تنظيـم دخـول الحـالات لغرفـة الكشـف، فخـرج علينـا التمرجـي بعـد دقيقتـين ينـادي اسـم سـلمى.

_ سلمى إبراهيم.

ففزعنـا جميعـا ننظـر ناحيـة التمرجـي نظـرات حائـرة متسـائلة، وكأننـا لا نعـرف لمـاذا ينـادي اسـم سـلمى الآن، فقدنـا عقولنـا حينهـا،

وانتظرناه يقرأ علينا التقرير، أي تقرير ذلك الذي يقرأه التمرجي؟ لا ندري .. نحن لم نوقع الكشف حتي يقرأ علينا تقريرا طبيا.

_ يلا يا مدام سلمى دورك في الكشف وصل.

يا إلهي! هل وصلنا إلى هذا الدرجة من شرود العقل، حتى نتعجب من نداء التمرجي على سلمى، ونحن ننتظر ذلك النداء حتى ندخل غرفة الكشف؟ يا لها من صدمة أطاحت بأسماعنا وأبصارنا وعقولنا وقلوبنا، وبينها وبين الإطاحة بأرواحنا خطوات قليلة.

دخلنا على الدكتور راشد، واستلقت سلمى على سرير الكشف دون أن تتفوه بكلمة، وجلس والداها بجوارها يراقبان حواري مع الدكتور راشد.

_ باختصار شديد يا دكتور، دي سلمى خطيبتي، تعبت شوية ورحنا المستشفي والدكتور الشاب قال لنا إنها حامل، واحنا لسة مخطوبين، جرينا بيها على الدكتورة ناهد السعدي، قالت لنا إنها فعلا حامل، وكمان عذراء.

_ حامل وكمان عذراء! ازاي الكلام ده؟

_ ده نفس السؤال اللي أنا سألته لها، ونتمنى حضرتك تريح قلوبنا لأننا خلاص فقدنا عقولنا وأعصابنا وماشيين بدون وعي.

_ متخافش، إن شاء الله خير.

قام الدكتور راشد ناحية سلمى يوقع عليها الكشف الطبي، وتأهبت للخروج من الغرفة إلا أنني فوجئت بالدكتور راشد يسدل ستارا على مشهد الكشف، ليجعله حاجزا دون نظراتي إليهم ولكن والد سلمي هذه المرة ظل واقفا بينهم لم يستطع التحرك بعيدا عنهم.

مـا هـي إلا دقائـق حتـى رفـع الطبيـب السـتار وخـرج واجـما مندهشـا، قـد أصابـه مـا أصابنـا، وهـو يعلـق سـماعته عـلي رقبتـه، ويطـرق بآخرهـا فمـه، كالتلميـذ الصغـير يضـع القلـم الرصـاص بـين شـفتيه لحظـة شروده.

_ انت متأكد إن الدكتورة ناهد كشفت علي عذريتها؟

_ أيوة يا دكتور، وأكدت لنا إنها لسة عذراء.

_ والحمل ده تم ازاي؟

_ صـلي ع النبـي يـا دكتـور، احنـا متأكديـن مـن موضـوع العذريـة وشـاكين في وجـود حمـل أصـلا.

جلـس الطبيـب عـلي مكتبـه، ووضـع يديـه متشـابكتي الأصابـع تحـت جبهتـه، وحـرَّك رأسـه عـدة مـرات ثـم رفعهـا، ونظـر فينـا وهـو يضـم شـفتيه، كمـن يغلقهـما ليحجـز أكـبر عـدد مـن الكلـمات خلفهـما، فيتفـوه بهـم جملـة واحـدة دون تـردد أو تفكـير في تنسـيق لاحـق للكلـمات.

_ هو انتوا مخطوبين من إمتى ؟

_ لينا سنتين بالظبط.

_ عن حب؟ ولا صالونات؟

_ اللهم طولك يا روح .. عن حب.

_ لما بتتقابلوا بيكون في شغف ولهفة وأحضان ولا عادي؟

أصابتنـي حالـة مـن الغضـب كتمتهـا بداخـلي، وكظمـت غيظـي، حتـي لا أمسـك رقبـة الدكتـور راشـد واكسرهـا عقابـا لـه عـلى أسـئلته التـي لا تتصـل بالأمـر الـذي يؤرقنـا، فـما كنـت لأقـوم بـأي عمـل يجعـل سـلمي تفقـد أعصابهـا، وهـي التـي تمتـص سـكونها مـن سـكوني، وهدوءهـا مـن تريثـي، حتـى في أعظـم مصيبـة تعيشـها.

أراها مطمئنة قليلا لوقوفي بجوارها ثابتا صلبا، ولو أني فقدت السيطرة على نفسي، لانفجرت سلمى في البكاء، لتندب حظها، وتشق جيوبها على ما وصلت إليه، فسكوني أمامها بمثابة المادة المخدرة التي تسكنها، وتهون الأمر عليها.

_ أرجوك يا دكتور، هات من الآخر وقول لي تشخيصك علشان نرتاح.

_ مبدئيا هي حامل فعلا، ودي حالة أول مرة تعدي عليا في حياتي، وكمان في زميل وزميلة قبلي قالوا نفس الكلام، يعني كده الموضوع أصبح مؤكد، ومؤكد جدا كمان.

_ حامل! ولسة عذراء! طاب ازاي ده؟

وقف الطبيب وتحرك في الغرفة خطوات دون أن يتكلم، وكأنه يستغيث بذاكرته العلمية علّه يجد تفسيرا علميا واحدا لتلك الحالة، التي تمر عليه لتضيف قَطَرات لبحر خبراته، وتطيح بأحلامنا في تجرع قطرة واحدة من السعادة، حتي انفرجت أساريره وابتسم، وكأن قلبه يصرخ قائلا وجدتها وجدتها، و هاج ثائرا يضخ محاضرته على أسماعنا في محاولة لإقناعنا بما قد توصل إليه وبدأ يتحدث الفصحي كأنه يقدم برنامجا علميا قائلا:

_ قد تكون تلك الحالة من حالات الحمل، نتجت عن تلاقيكم بعد شوق ولهفة، وقد تقضون الساعات تتبادلون النظرات والهمسات واللفتات، دون حاجز بينكم، ويحمل كل واحد منكم في عقله ما يحمله الزوج لزوجته، وتحمله الزوجة لزوجها، وأظن أنه قد حدث بينكم أمر ما جع_.....

قاطعته قائلا:

_ ايه يا دكتور اللي بتقوله ده، تحليلك مش صحيح خالص واللي بتحكي عليه ده محصلش

_ انت حر، ده اللي عندي، ووقت الكشف بتاعكم خلص.

_ شاكرين الأفضال يا دكتور، يلا يا سلمى، يلا يا جماعة.

قامت سلمي من مكانها لا حول لها ولا قوة، تسندها أمها المكلومة، وجرجر والدها قدميه ماشيا خلفهم خارج غرفة الكشف، فقد تثاقلت أرجله عن المشي، لا يدري المسكين أي مصيبة تنتظره بعد الوصول إلي البيت ومقابلة ابنه خالد، يفكر في أقاربه، ماذا يقول لهم؟ أي حمل ذلك الذي تحمله ابنته وهي لم تزل مخطوبة؟ هل يصدق الجيران أنها عذراء؟ هل يقتنع الجيران وجيران الجيران أن العذراء قد تتعرض للحمل دون أن يمسها أحد؟ هل ينتظر الناس رأي العلم في تلك الحالة؟ أي مصيبة تلك التي تنتظر أبو خالد بل تنتظرنا جميعنا؟.

***

رجعنا إلى منزل أسرة سلمى، فوجدنا خالد ينتظرنا بالمنزل كما توقعت، فوقع عليه بصري، فزعت من هيئته، رأيت في عينيه شررا يتقد، وكأنه يعرف ما أصاب سلمى، وما سمعناه من تشخيصات الأطباء.

وقف خالد وتقدم إلى سلمى وهو ينظر إليها حانقا، وأمسك يدها يسندها مع أمه، فأجلسها على الكنبة المواجهة لباب دخول المنزل، وتقدم ناحية الباب وأغلقه، جلست أم سلمى بجوارها على االكنبة، وتقدم أبو خالد ناحية السلم وجلس واضعا يديه على رأسه، يقبض عليها خشية أن تنفجر من هول ما تراكم عليها من أحداث.

تقدم خالد ناحيتي وأمسك بيدي وأجلسني على الكنبة المقابلة لغرفة الضيوف الداخلية، وهو يقبض على فمه.

_ إيه اللي حصل بالظبط يا أستاذ علاء؟.

فوجئت بسؤاله وأنا مرتبك، لم أكن أتوقع أن علاء يعرف شيئا عن ذلك الخطب الجسيم الذي طرأ علينا، فلم يكن معنا أحد، خرجنا معا وعدنا معا.

_ مش فاهم يا خالد، تقصد ايه؟

_ يعني إيه سلمي حامل يا أستاذ علاء؟ ازاي الكلام ده حصل؟

أصعقتني تلك الجملة، فتلعثمت، ووجدتني أسعل، وسلمى ترفع رأسها بسرعة، ناظرة إلى خالد كمن أفزعها صوت قطار مر فجأة بجوار نائم دون تنبيه مسبق، وأبو خالد الذي انتصب واقفا كأن قوة لا إرادية فرضت نفسها على جسده جعلته يهب قائما كالأعمدة المسلحة، جسد بلا مفاصل ولا غضاريف، ووالدة سلمى في وجومها تراقب الموقف منذ أول وهلة.

_ وانت عرفت ازاي الكلام ده؟

_ رد عليا يا أستاذ علاء، ازاي سلمى حامل أرجوك؟

_ ما انت تقول لي مين اللي قالك علشان أفهم اللي وصل لك ايه يا خالد.

_ صابرين أخت مراتي كانت في المستشفى مع واحدة جارتها، ولما شافتكم داخلين أوضة الكشف، قعدت مستنياكم برة، علشان تعمل الواجب ، وتقول لكم ألف سلامة عليها، وسمعت الدكتور هو وبيقول لكم إن سلمى حامل، وأنا عايز أفهم ايه الحوار ده بالظبط.

_ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ولحقت جات تنشر الخبر، إيه الناس اللي متنشقة على خبر وما بتصدق تسمعه علشان تذيع دي.

_ أستاذ علاء! أنا على أعصابي الله يبارك فيك، يا ريت تفهمني الموضوع بالظبط.

لم أجد مفرا من أن أحكي لخالد عن زيارتنا للدكتورة ناهد السعيد، و من بعدها الدكتور راشد، الذَين أخبرانا أن سلمى لم تزل عذراء، بالرغم من أنها حامل، ولا وقت الآن للعتاب واللوم والقاء الاتهامات لي ولسلمى، بأننا كنا فريسة سهلة للشيطان في أي وقت، ولا مجال للشك في أطراف تثق في بعضها البعض.

انفجرت سلمى بالبكاء وأصدرت نحيبا وهي تصرخ، تندب حظها، تعاتب القدر.

_ إيه اللي بيحصل ده يا رب؟ إيه اللي أنا وصلت له ده؟ هموت يا ناس، هموت، مستحيل، لا لا لا لا، مستحيل أتحط في الموقف ده أبدا.

أسرعت ناحيتها وأمسكت يديها، وأوقفتها ونظرت في عينيها، وأنا أتحسس كفة يدها أمام أهلها

_ بس يا سلمى متعمليش في نفسك كده، أنا جنبك، مش هسيبك، أنا واثق فيكي أكتر من أهلك ومش هسيبك، إياك تعملي في نفسك كده، اياك تخلي الحزن والخوف يكون لهم مكان في قلبك انتي فاهمة؟ أنا جنبك يا سلمي، انتي خطيبتي، وهتكوني مراتي، حامل مش حامل مراتي.

_ هو ايه اللي بيحصل لي ده يا علاء؟ ليه أنا بالذات اللي أبقي لبانة في بوء صابرين وغيرها صابرين هتفضح الدنيا يا علاء.

_ وأنا هدعي الدنيا دي كلها تشهد على فرحنا يا سلمى، إياك تزعلي نفسك كده.

حاولت سلمى أن تتماسك، وتوقف نحيبها، وقبضت على يديَّ بقوة وهمست متوسلة

_ أرجوك يا علاء إوعى تتخلي عني

_ أتخلي عنك ازاي يا سلمى؟ ده أنا الدنيا ضلمت في عيني لما غمضتي عينك، والحياة دلوقتي سودة يا سلمى، سودة أوي، مش علشان اللي بيحصل لنا ده، الحياة سودة علشان إنتِ بتبكي أرجوكِ يا سلمى متبكيش، علشان خاطري، والله ما هسيبك، مش هسيبك يا سلمى.

_ الله يبارك فيك يا علاء يا ولدي، راجل يا ولدي ومن ضهر راجل.

_ مش ده المهم يا والدي دلوقتي، المهم ازاي نوقف كلام الناس.

_ فين الناس اللي سمعت، محدش يعرف غير أخت مراتك، وهي وضميرها بقى.

_ هي لو عندها ضمير يا أستاذ علاء كانت جات حكت لي، يا ترى حكت لمين غيري؟

_ أنا هحجز لكم عند أستاذ دكتور في طب النساء والتوليد، وهنروح له، وبعد كده هعمل المستحيل علشان اتجوز سلمى، سواء قال حامل أو مش حامل أو أي تشخيص، سلمى دي مراتي من دلوقتي يا جماعة.

مضى النصف الأول من الليل علينا داخل بيت أسرة سلمى، وأنا في محاولاتي للتخفيف عنها من ويلات ما تلاقي، و آن الأوان أن أرحل، لأتركهم يهجعون قليلا، يركنون إلى مضاجعهم فيستريحوا قسطا من الليل، إن استجاب النوم لهم، ولبى دعوتهم للحضور، مطبقا على جفونهم ومريحا لفكرهم، ليسحبهم من مرارة الواقع،

إلى فضاء الخيال المتسع، الذي يهرب إليه البشر في يقظتهم، ويجذب بعض النائمين إليه، دون أن يختاروا طريقهم حين يسبحون فيه، فمنهم من يطوف في ملكوت السعادة فترة قليلة من الزمن، ومنهم من تلاحقه نوائبه القابعة في عقله الباطن لتصبغ أحلامه بصبغة الغصة والمرار.

***

عدت إلى بيتنا، فوجدت والدي يقظا ينتظرني، وكأنه قد علم هو الآخر بتلك المصيبة، ولكني لا أظن ذلك، فليس هناك أي علاقة تربطه بصابرين أخت زوجة خالد التي أبلغت أهلها خبر الحمل.

_ مساء الخير يا بابا.

_ اتأخرت ليه كده يا علاء يا بني؟

_ أبدا يا بابا، بس أخدني الوقت مع سلمى.

_ وايه موضوع الحمل بتاعها ده؟

يا للدهشة! ... كيف عرف والدي أن سلمى حامل؟

يا إلهي! من أين له بتلك الأخبار؟

لم أستطع الرد، ولكني رفعت بصري إليه، وحدقت فيه النظر لأقرأ ملامحه جيدا قبل أن أجيبه، لأرى ما الذي يدور في عقله من خلال عينيه، فوجدت عينيه تتهمني بارتكاب فعل فاحش، وتتهم سلمي بالخطيئة.

_ وحضرتك عرفت ازاي يا بابا ؟!

_ ايه هو اللي عرفت ازاي؟ دي الحتة كلها عارفة.

_ والحتة عرفت ازاي؟! هي حارتنا والحواري اللي جنبنا يعرفوا صابرين منين؟!

_ أنا سمعت الخبر في الصيدلية، كان الواد حمادة الحلاق بيسأل الدكتور ازاي واحدة تحمل وهي لسة بنت بنوت، وراح قال له انك كنت في المستشفى، وخطيبتك طلعت حامل، وإنك رحت للدكتورة ناهد وقالت لك إنها حامل ولسة عذراء، وإن الدكتور راشد قال لك نفس الكلام، فهمني يا ولدي ايه اللي حصل.

يا إلهي!

ما الذي يحدث؟ أين أعيش؟ بل أي أناس هؤلاء الذين أعيش بينهم في منطقة واحدة؟ كيف تناقلوا أخباري وتحركاتي بتلك السرعة؟ بل كيف عرفوا تشخيصات تلك الأطباء؟.

شعرت أن الدنيا كلها تدور بي، وأنا أقف في المنتصف لا أستطيع تحديد أي مركز من مراكزها، لا أعرف ما سر ذلك الضعف المفاجئ الذي أصابني، لقد كنت صلبا قويا منذ أقل من نصف ساعة، ما الذي هزني هكذا، ما الذي أضعفني؟.

لا بد أنني شعرت بالخوف من تداول الأحاديث على ألسنة الناس، عن سلمى وتوجيه الاتهامات لها ولي بالباطل، وهذا أمر يزعجني، ولكني أكاد أُصعق من هول ما أسمع، كيف طاف الخبر كل أرجاء المنطقة بتلك السرعة؟ بل كيف عرف الناس تشخيصات الدكتورة ناهد والدكتور راشد؟ ولم يكن معنا أحد داخل الغرف المغلقة؟ كيف حدث كل ذلك؟.

_ جاوبني يا ابني حصل ايه بس؟

_ جاوبني انت يا بابا الأول، قول لي الواد حمادة الحلاق عرف ازاي، وشاف صابرين فين؟

_ حمادة الحلاق سمع زبون عنده كان في عيادة الدكتور راشد، ودخل بعدك على أوضة الكشف، وسمع الدكتور راشد بيكلم

الدكتـورة ناهـد في التليفـون، بيقـول لهـا انـت متأكـدة ان البنـت المخطوبـة الـلي كانـت عنـدك دي لسـة عـذراء، وقـال لهـا كـمان إنهـا لسـة خارجـة مـن عنـده هـي وأمهـا وأبوهـا وخطيبهـا حـالا، وهـو مـش عـارف يركـز في أي حاجـة، والزبـون ده يعرفـك مـين ومنـين، ويعـرف خالـد أخـو سـلمي كـمان، وبيقـول انـه مـش عـارف يسـأل أخوهـا خالـد عـن الموضـوع، خايـف يفهمـه غلـط.

ـــ هههههـه! لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، بالسرعـة دي الخـبر ينتشر بـكل تفاصيلـه، لحـد مـا يوصـل عنـد الحـلاق، ويدخـل الصيدليـة، ويوصـل بيتنـا، ويـروح بيـت نسـايبي مـن مصـدر تـاني خالـص احنـا فـين؟ ولا احنـا مـين؟ ولا ايـه الـلي بيحصـل ده؟

ضحـكات هيسـترية أطلقتهـا بعـد منتصـف الليـل، وأنـا أقـف بـين يـدي والـدي الـذي يـود معرفـة الأمـر بـكل كواليسـه، والـدي الـذي يتمنـى أن يـراني في بيتـي مـع زوجتـي سـعيدا هانئـا، خاليـا مـن كل مشـاكل الحيـاة..

_ هو انت غلطت مع سلمى يا علاء؟

_ وانت تعرف عني كده يا بابا؟

_ طاب سلمى يا علاء ممكن ..

_ أرجـوك يـا بابـا بـلاش تقولهـا، سـلمى عمرها مـا تغلـط، والموضوع سـهل وبسـيط، وأنـا هعرضهـا عـلى استشـاري نسـاء وتوليـد، يشـوف لنـا تفسـير علمـي للموضـوع ده، بـس النـاس زي عادتهـا اسـتعجلت في نـشر الخـبر، و يـا تـرى هيضيفـوا عليـه إيـه مـن عندهـم لـزوم الحبكـة، حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل، حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل.

تركـت والـدي ودخلـت غرفتـي، لا أحمـل في رأسي وصـدري هَـمًّا سـوي تلـك الأنبـاء التـي يسـتعد النـاس لتناقلهـا صبـاح الغـد، ولا أخشى

سـوى تلـك الإضافـات التـي يبدعـوا في تأليفهـا لتـزداد الموضوعـات إثـارة وتشـويقا، أعلـم تمامـا أن ماراثـون الحكايـات سـينطلق صباحـا في منطقتنـا كلهـا، لـيرى جمهـور المتابعـون مـن هـو الأفضـل سردا لحديـث الموسـم، وموضوعـه حمـل سـلمى خطيبتـي.

أسـندت ظهـري عـلى وسـادتي، ولكنـي لم أسـند عقـلي، لا أدري إن كان النبـض في قلبـي أم في أصابـع يـدي، بـل هـو في رأسي، لكنـه في قدمـي، لا أدري إن كنـت أتنفـس مـن أمعـائي، أم أن التنفـس في سلسـلة ظهـري، أغمضـت عينـي فوجدتهـا تـأبى أن تغمـض، وكأنهـا هـي المتحكمـة في مركـز المـخ العاجـز عـن أمرهـا بالخلـود إلى النـوم.

الغرفة حولي مظلمة، فهل أنا من أطفأت النور بأصابع يدي؟ أم أن التيار الكهرباء قد انقطع أم أصابني العمى ولن أرى شيئا بعد تلك اللحظات.

قمت ناحية لوحة مفاتيح الإضاءة لأتأكد منه، فضغطته فازدادت الغرفة ظلاما، فعاودت ضغطه فعاد الظلام أخف حدة، فعلمت حينها أني لا زلت أبصر، وأن الغرفة مضاءة، ولكن ظلاما حالكا يحتل رأسي، يغطي على إضاءة الغرفة، فلم أعد أرى شيئا على غير العادة.

نمت على جنبي الأيمن، ثم الأيسر، عاودت الجلوس ثانية، ولكني سرعان ما أرخيت ظهري ومددت قدميَّ على طول الفراش، ووضعت يداي علي صدري، اليمنى تعلو اليسري، وكأنني ميت ينتظر أربعةٌ يحملونه على النعش ليواري الثرى إلى مثواه الأخير.

نعم هي تلك الحقيقة، لم يسترح جسدي إلا على ذلك الوضع في نومي، وجدت في وضع الميت راحةٌ لي، وكأني أطلبه لأفرَّ من مصيبتي إلى ذلك العالم الخالي من المشاكل، أو لأنه هو المفر الآمن من ويلات تلك المشكلة التي بدت خيوطها أكثر تعقيدا وتشابكا، حتى وصل حلها إلى

درجة المستحيل.

استشعرت الراحة في وضعي نائما، وكأني أنادي ملك الموت الآن ليقبض روحي، ليخلصني من تراكمات رأسي، وثقل صدري، وسواد عيني، وأجراس الخطر التي تدق في أذني، طلبت ملك الموت وأنا أخبره أني مستعد الآن، متخذا الوضع الذي يحب أن يراني عليه، وأنا أحب أن أراه الآن.

ولكن ....!

إذا متُّ الآن فمن ينقذ سلمى من مصيبتها؟ من يطفئ لها ذلك الشرر الذي يتقد في أعين الناس المحيطة بها؟ من يربت على كتفيها برفق ليسكب عليها جرعات حنان ترطب أماكن الأشواك التي أطلقتها ألسنة المتكلمين عنها؟ لو أنا متُّ الآن فمن يكن لها درعا يصد عنها سهام النمامين، ورماح الهمازين واللمازين؟.

لا يا ملك الموت، قد تراجعت في رأيي، أرجوك لا تقبضني الآن، لن أهرب من مصيبتي، لن أترك سلمى وحدها تعاني نظرات عاهري الفكر في مجتمعاتنا.

نمت ليلتي حتي الصباح، وأنا أفكر في سلمى، كيف تقضي ليلتها؟ هل تمنت الموت مثلي؟ أم أنها ماتت من طعنات وساوسها؟ هل استطاعت الغوص في الأحلام؟ أم أن تيار يقظتها جرفها إلى دوامات الأرق، فتهاوت في نفس الحلم الذي مزج اليقظة بالمنام، فتبدلت حولها تضاريس الأرض، فرأت البحار تعلو الجبال، والصخور في الأرض المستوية، تقذفها الأمواج في جو السماء، وتدوس السحاب على الأرض، والرياح العاتية تتخذ جانبا في الطرقات، تضع يدها أسفل أذقانها لتشاهد سلمى التائهة في جنبات الحياة.

***

ما إن دقت الساعة السابعة صباحا، حتى هرعت إلى الشارع قاصدا بيت سلمى، لتفتح عينيها فتراني أمامها، لترتوي الطمأنينة برؤية ابتسامتي في وجهها، ولتُقم صلبها بلقيمات تغمسها من درجات صوتي، فتستقبل يومها دون خوف من هم يصيبها، أو نائبة أخرى تقضي على ما تبقى في جسدها من خلايا عصبية تساعدها على معايشة طبيعة الحياة.

كنت أظن أني لها الآن سفينة تحملها على ظهرها، فتنقلها من أمواج الفضاء إلى شواطئ برية، وربانا يستدعي الرياح من سكونها، لتدعمها ببعض طبقات الهواء، وراكبا يشعرها بأن التضاريس تعود إلى سابق عهدها، فتسبح السحب في السماء، وتجري البحار في شقوق الأرض، والجبال الرواسي تزن الأرض كما عهدتها سلمى من قبل.

ولكن في طريقي إليها وجدت نفسي غارقا في مستنقعات قذرة بين نظرات الناس، الكل يراقبني، يتابعني.

في كل خطوة أخطوها في طريقي أسمع همسا، وأري غمزا، وأستشعر نميمة، وأتلقى وابلا من سهام الاتهامات يطعنني في ظهري، لكني لا أعرف ماذا يقول هؤلاء الغوغائيون عني.

أصبحت مجرما في نظر المحيطين بي، وأضحت سلمى ساقطة، أطلقوا الأكاذيب فصدقوها، فحاكوها وارتدوها، فأعجبتهم حياكتها فطرزوها، فجذب انتباههم تطريزها فزادوها أشكالا ورسوما تزيدها تشويقا وإثارة، فأضحت لحومنا أنا والمسكينة مباحة لكل تلك الكلاب الضالة لتنهش فيها، دون أن تفكر للحظة واحدة في حيثيات المصيبة التي ألمت بنا.

أسرعت الخطى إلى سلمى، لم تطق قدماي صبرا على المسير، فتمنيت لو أدفع الأرض تحتي فأطير إليها هاربا من ذلك العالم، لعلي أجد في قربها راحة وسكينة، وأستمد من ضعفها قوتي فكلما رأيتها خائفة، تصنعت القوة أمامها لأبث فيها الطمأنينة، فكم مسحت عنها الخوف بأمان كفوفي، ونفخت فيها من قوتي ليختفي الضعف من عينيها فلا يعود إلا في غيابي.

طرت إلى سلمى، قبل أن ترى مثلما رأت عيني من السهام القذرة المصوبة تجاهي فأصابتني في نفسي، فلم تهمني نفسي، طرت إليها لألقي بجسدي أمام نفسي التي هناك، فإصابتها فقط تميتني.

وقفت أمام المنزل لأطرق الباب عليهم، فسمعت أصواتا عالية تتبادل الاتهامات بالداخل عرفت أنها مشادة كلامية عائلية، بل كنت على يقين أنها محاكمة قاسية يديرها قضاة العائلة دعاة الشرف، ليدفعوا عن أنفسهم العار، وإن كانت الوسيلة هي قتل سلمى دون التأكد من براءتها.

اقتحمت المنزل دون انتظار من يفتح لي الباب، فكيف أنتظر بعض الثواني، وأنا أعلم أن المسكينة تتحمل وحدها أسواط الجلادين بالداخل.

كان المنزل عامرا برجال وشباب العائلة، يقفون في مختلف أركان الصالة، عيونهم حمراء كقطرات دماء حديثة النزيف على طريق مروري في وسط النهار، والشمس في كبد السماء تنزل عليها أشعتها عمودية في حر يوليو.

وجدت الوجوه من مختلف الفئات العمرية، قد جعلت من أنفسها قضاةً وجلادين في آن واحد بل أن المتهمين في تلك القضية أسرة بأكملها، فالمتهم الأصلي هي سلمى التي تجلس على الكنبة

المقابلة لباب الدخول إلى المنزل، وقد اختفت ملامح وجهها، فقد انجرفت تلك الملامح أمام تيار الدموع المندفع من عينيها، وقد خرت قواها من هول ما تلاقي.

و المتهم الثاني وهو المحرض لتلك الجريمة وهو والد سلمى، ذلك الرجل الذي ارتدى بدلة المحكوم عليه بالسجن المشدد، حكما نهائيا لا طعن عليه ولا نقض فيه، فقد جلس على السلم يندب حظه، يراقب بعينيه تلك الوجوه العابسة، التي تشابهت، اتخذت تجاعيدها شكل قرون الشيطان العالقة في الأذهان.

حتى الأم المكلومة التي جرح الخطب قلبها، وأطفأ نور عينيها، وأثقل الهم صدرها، هي الأخرى متهمة في تلك القضية التي لم يثبت فيها دليل إدانة واحد، و ما هي إلا تشخيصات أولية لممارس عام وطبيبة أخصائية، وطبيب آخر لم يحصل على درجة الماجستير في الطب رغم قِدَم تخرجه في كلية الطب.

كنت أظن أن خالد متهما معهم في نفس القضية، ولكنهم رأوا فيه قوة جسمانية، وحيوية شاب مفتول العضلات، فقرروا في حركاتهم أن يجعلوه قاضيا وجلادا معهم، ليستفيدوا بقوته ويتجنبوا مصارعته، فمجتمعاتنا لا تحاكم سوى الضعفاء، والثكالى، والمغلوبين على أمرهم.

مجتمعاتنا لا تفتعل الصدام مع الأقوياء وإن أذنبوا، وجلسات المحاكمات العرفية لا تُعقد إلا للنيل من ذوي الظهر المكشوف، والجذور العائلية المقطوعة.

المتهمون في عالمنا دائما يحملون نفس الصورة، صورة المرأة التي أكل عليها الزمان وشرب، فلانت عظامها، وخرت قواها، فلا ولد يرفع عنها، ولا زوج يحميها، ولا أخ يقف حاجزا دون أن تكشف عراها.

هالني ذلك الأمر لحظة دخولي إلى صالة المنزل، فأزعجني وجه سلمى الذي عهدته دائما نضرا، أستقي منه قطرات الندى التي يبتل لها ريقي كلما وقعت عليه عيني، رأيته شاحبا وكأنها ترتدي قناع أكبر مسنة في تاريخ البشرية، ذلك القناع الذي قد يجده الأثريون في اكتشافاتهم الحديثة بالمقابر الفرعونية أو ما يماثلها من حضارات العالم القديم.

توقفت قليلا لأسمع ما يقوله عمها رأفت ذو الخمسين عاما، الذي يصرخ في وجهها.

_ انتِ حطيتي راسنا في الطين، مش عارفين نرفع عيننا في الناس، الله يخرب بيتك، وبيت أبوكِ وبيت أمك اللي مش عارفين يربوكِ، إنت العيش فيكي حرام، الله يخرب بيتك، الله يخرب بيتك، الله يخرب بيتك.

رأيته يتقدم ناحيتها يود صفعها على وجهها بكفة يده، فاندفعت ناحيته، ودفعته بقوة بعيدا عنها وأدرت ظهري لسلمى، ونظرت فيهم جميعا بوجه غاضب يتقد شررا أكثر من شررهم، بل إني ظننت أن شظايا عيني تفر مني، فتتطاير على وجوههم تحرقهم.

_ انتوا مش بني آدمين، مستحيل تكونوا بني آدمين، وانت مستحيل تكون عمها، ولا انت يا خالد أخوها، انتوا ايه، مش بتحسوا، جايين بربطة المعلم تنصبوا المحاكمة هنا، وتقطعوا الشوية اللي فاضلين في جسمهم، ايه تختلفوا عن الناس اللي برة اللي انتوا مش عارفين ترفعوا عينكم فيهم، امتى هتتعلموا تتعاملوا مع المصايب.

_ انت ولد مش محترم، وأكيد انت سبب كل البلاوي دي، وإلا مش هتدافع عنها كده.

_ ياريت تحاسب على كلامك يا عم رأفت، لاحظ إنك راجل كبير، وأنا أقسم باللـه ما شايف قدامي، يعني ممكن أقتل أي حد دلوقتي، وخلاصة الموضوع، اللي شايف نفسه قريب سلمى وأبوها، يفكر معانا في حل للمشكلة دي، واللي شايف نفسه قاضي، يا ريت يورينا عرض أكتافه ويمشي من هنا، لان القاضي اللي علينا هو ربنا وحده.

_ وانت بتتكلم بصفتك ايه ان شاء الله يا علاء أفندي، دي بنت أخويا وده بيت أخويا، والعار ده عاري، يعني يمسني أنا ويمس عيالي.

_ أنا بتكلم بصفتي خطيبها، وكلها كام يوم و هتكون مراتي، لإني هتجوزها.

_ هتتجوزها وهي حامل؟

_ هتجوزها على أي وضع، ومش هسمح لبشر يجيب سيرتها بكلمة، لأني واثق فيها وفي أخلاقها، العيب بئى ع اللي مش واثق في بنت أخوه، وعامل فيها رب البيت.

التفتت إلى سلمى وأمسكت يدها وأوقفتها أمامهم، وأخرجت المناديل الورقية من جيبي، وجففت لها دموعها، ورفعت رأسها ونظرت في عينيها.

_ قلت لك متخافيش من أي بشر طول ما أنا جنبك، كفاية بكا، ارحمي نفسك شوية.

تركت يدها وتحركت خطوات في منتصف الصالة ناحية أبو سلمى وساعدته على الوقوف.

_ النهـاردة هتصـل بالدكتـور هـاني استشـاري النسـاء والتوليـد، وهحـدد معـاه ميعـاد للكشـف وهناخـد سـلمى ونـروح لـه يـا أبـو خالـد، وأيـا كان تشـخيصه، هنرجـع نحـدد ميعـاد الفـرح، ونقطـع كل لسـان اتكلـم عـلى سـلمى بكلمـة.

_ اللـه يبـارك فيـك يـا ولـدي، إلهـي يسـتر عرضـك، إلهـي ينجيـك، روح يـا ولـدي إلهـي ينـور بصيرتـك.

_ ربنا يبارك لنا في عمرك يا أبو خالد، ويبعد عنك ولاد الحرام.

وقعـت عينـي في عـين رأفـت عـم سـلمى، فوجدتـه حانقـا، وكأنـه لا يتمنـى أن يخـرج دون اسـتكمال المحاكمـة، رأيتـه يبحـث عـن مخـرج مـن ذلـك الموقـف الـذي وضـع فيـه أمـام أقاربـه، فـلا حاجـة لإتمـام المحاكمـة وقـد اتفقـت مـع والدهـا عـلى إتمـام الـزواج بهـا.

مـا كل هـذا الحقـد الـذي يمـلأ قلـوب النـاس؟ فمنـذ دقائـق كان غاضبـا عـلى أخيـه وابنـة أخيـه، بحجـة أنهـم جلبـوا لـه العـار ولأولاده، كان رافعـا سـوطه يجلدهـم بقـوة، كان يقاضيهـم وكأنـه قـاضي القضـاة، وقـد تحـرى فأثبـت التهمـة عليهـم، فتحـول غضبـه إلى غضـب أشـد حينـما خففـت عنهـم حـدة مصيبتهـم بوعـدي لهـم بزواجـي بهـا.

أليـس مـن العقـل أن يفـرح عمهـا رأفـت بزواجها؟ ألن يمحـو زواجي بسـلمى آثـار تلـك الفاجعـة؟ لكـن حقيقـة العصابـة قـد انكشـفت، ونواياهـم قـد تعـرت، هـم ثـاروا بدعـوى الغـيرة عـلى الـشرف. ولكنهـم لم يتحـروا اليقـين قبـل توجيههـم تلـك الاتهامـات لابنتهـم العـذراء، ومـا إن أطفـأت ثورتهـم بكلـماتي لهـا أمامهـم، ووعـدي لأبيهـا، رأوا في أنفسـهم حالـة مـن الخـذلان، فلـم يكتمـل مـا أعـدوا لـه.

انصرفـوا تباعـا وتركـوا المنـزل، يلملمـون أذيالهـم، ليتهـم ذهبـوا سـعداء باقتراحـي لحـل المشـكلة ولكنهـم انصرفـوا تعسـاء، رأيـت

التعاسة في وجه كبيرهم رأفت عم سلمى، وإن كان الشباب قد أبدوا سرورا بهذا الاقتراح ووجدوا فيه شيئا من النجاة، لكن ضعفهم أمام قائدهم أجبرهم على إخفاء سرورهم، ولو أنهم ابتسموا في وجه سلمى وهنئوها، لأزالوا عنها كل ما تحمله من عناء.

تركت سلمي وأهلها بعد أن نفخت فيهم شيئا من القوة والصبر ليستعينوا بهم على قضاء يومهم حتى موعد زيارتي لهم ليلا.

هاتفت أصدقائي هشام وزين ومروان، واتفقت معهم أن نتقابل عند مركز زين لأجهزة الكمبيوتر، حتى أفضي إليهم بما أعانيه، ولأسمع منهم ما يقال عني وعن سلمى في منطقتنا والمناطق المحيطة بنا.

***

قضيت اليوم بأكمله خارج البيت حتى فجر اليوم التالي، وعدت إلى غرفتي منهك القوي، أحاول النوم، ولكنه لم يخضع لمحاولاتي وتوسلاتي تلك المرة، فقد استعدت بذاكرتي كل ما دار بي منذ خروجي صباحا حتى لحظة احتضان رأسي لوسادتي.

بدأت أحكي لنفسي ما لاقيته، كأنها كانت تنتظرني هنا على فراشي، وتود لو أن أسرد لها كل ما حدث في يومي.

يا له من يوم، تكشفت لي فيه عرى هذا المجتمع، وتأكدت من عهره الفكري الذي يلاحق كل المحيطين به، صدمتني أخبار الناس وأساليب تناولهم للواقعة كما عرفتها من هشام وزين ومروان، أصدقائي الذين خرجت بهم من الحياة باقتناء فائق، فوجدت فيهم السند في تلك اللحظات الصعبة من حياتي، فأيدوني

في موقفي بحماية سلمى من الناس.

أخبرني هشام أنه سمع بالموضوع في سيارة الأجرة التي ركبها، قاصدا عمله قبل أن أتصل به بساعة واحدة.

ما إن تحركت بهم السيارة، حتى صاح أحدهم يحكي أن الدنيا تريهم كل يوم ما يثير دهشتهم وأن البنات لم تعد تحفظ سمعة أسرهم، فسأله أحد الناس عن ماذا يحكي، فقال له أن سلمى أخت خالد صديقه، حامل في شهرها الرابع، و أن خطيبها قد فسخ خطوبته بها وتركها.

فردت عليه إحدى السيدات لتضيف إليه أن خطيبها علاء يتعاطى المخدرات، وهو من تسبب في حملها.

ليضيف لهم آخر أن البنت تعرف أكثر من شاب، وأمها على علم بذلك ولكنها لا تمنعها من الخروج في أي وقت، وتخفي عن أبيها كل ذلك.

يا لفظاعة ما أسمع، في ساعات الليل قد اخترع الناس ألف قصة وقصة عن سلمى وعني، ما هذا البلاء الذي أصاب المجتمع؟ جعلوا من سلمى فتاة سيئة السمعة، لمجرد انتشار تشخيص طبي حار في توصيفه المتخصصون، ما تلك المسرحيات التي يحيكونها، كيف يروق لهم أن يصطنعوا حكايات ويصدقوها قبل روايتها على سامعيها، متى أصبحت أعراض الناس سلعة رائجة وحديث سمر داخل سيارة أجرة، دون أن يوقفهم رجل رشيد عن ذلك الحديث؟.

وما أدهشني أن السائق نفسه كان يقول في البداية أنه قادم من سفر بسيارته ولم يعد إلى منزله حتى الآن، وبالرغم من ذلك أدلى بدلوه وحكى كل ما يعرفه في تلك الأمسية الروائية التي أضحت حديث الناس، فقال لهم السائق أن زوجته كانت عند

الدكتورة ناهد السعيد ليلة أمس وسمعتها تقول أن البنت ليست عذراء، ولكنها قالت أنها عذراء حتى تنقذها من القتل على يد أسرتها، وأن تحليل حمض ال DNA الخاص بالجنين أثبت أنه ابن خطيبها علاء، ذلك الشاب الفاسد الذي خان ثقة أسرة خطيبته.

لم أعرف كيف أستقبل حكاية السائق، هل أضحك ساخرا؟ أم ألعن ذلك الموقف الذي وضعتني فيه الظروف؟ متى سمع السائق بذلك الأمر؟ وهو القادم من سفر ولم يصل إلي بيته بعد، وأي حمض تم تحليله للجنين؟ وحمضي أنا الذي وافق نفس مادة DNA الخاصة بالطفل الذي أكمل شهره الرابع، يا للتخلف، وهل رأوها في شهرها الرابع ولم تقل لنا الدكتورة في أي شهر هي الآن؟.

انتهى هشام من حديثه ليضيف مروان ما سمعه قائلا أنه استيقظ من نومه الساعة السابعة صباحا، على صوت جارتهم نبيلة، تنادي على أمه.

_ يا أم مروان، يا أم مروان.

_ ادخلي يا نبيلة، الباب مفتوح يا حبيبتي.

_ شفتي اللي حصل يا أم مروان؟ دي شكلها القيامة هتقوم.

_ يا ساتر يا رب، حصل ايه يا أختي بعد الشر؟.

_ البنت سلمي يا أختي اللي مخطوبة لعلاء صاحب مروان ابنك.

_ عارفاها، مالها دي كمان؟

_ دي كانت هربانة من أهلها ليها عشرين يوم، ورجعت لهم امبارح بالليل وهي حامل.

_ يا نهار أسود ومنيل، دي حتى مؤدبة ومروان ابني فرحان لصاحبه إنه خطبها.

_ جاتها نيلة فيها وفي أدبها، دي بنت شايفة نفسها ومتلونة، وبتروح ترقص في أفراح صاحباتها وبتلبس العريان، اسكتي اسكتي يا أم مروان مش عايزة أقول كل حاجة.

_ اللهم استر علينا وعلى ولايانا يا رب.

خرجت نبيلة من المنزل تاركةً أم مروان تصفق على يديها وهي تستعيذ من الحياة وما فيها وتقدمت لتغلق الباب خلف نبيلة، حتى توقظ ابنها مروان ليتناول إفطاره، فرأت نبيلة تقف أمام شقة جارتهم سامية الموظفة بشركة الكهرباء، فرأتها خارجة إلى عملها فأوقفتها.

_ صباح الخير يا بشمهندسة سامية.

_ صباح النور مدام نبيلة.

_ شفتي اللي حصل يا حبيبتي؟

_ خير يا رب حصل ايه؟

_ مش البنت سلمى بنت عايدة، حامل من خطيبها علاء، والواد مش عايز يعترف باللي في بطنها وساب لهم الدنيا وهرب.

_ الله أعلم بالناس يا مدام نبيلة، منعرفش الحقيقة فين، ربنا يتولاهم برحمته الواسعة.

_ شكلك مش مصدقاني يا بشمهندسة سامية.

_ دي حاجة في علم الغيب يا مدام نبيلة، ودي أعراض ناس، حتى لو صح مينفعش نتكلم فيها بعد إذنك علشان رايحة الشغل.

ابتعدت سامية عن نبيلة قاصدة عملها، فوقفت نبيلة متضجرة تنظر صوبها بغضب شديد وتكلمت بصوت عالي وكلمات مفهومة.

_ هي مالها الست دي شايفة نفسها علينا أوي كده، تكونش

هـي الوحيـدة الـلي متوظفـة مهندسـة في الكهربـاء؟ ولا علشـان بتقبض لهـا مرتـب أد كـده، تتكـبر علينـا، هـي الدنيـا جـرى فيهـا إيـه والنـاس بقـت مـش مسـتحملة بعـض كـده ليـه، أوف منكـم جـيران وحشـين.

***

كل قصـة تخـرج مـن البيـوت هـي ألعـن مـن أختهـا وأكـثر منهـا خطـورة، لـو سـمعتها سـلمى لسـقطت ميتـة.

انتابنـي شـعور بالخـوف لأول مـرة في حيـاتي، مـا عـدت أصـدق أننـا وصلنـا لهـذه الدرجـة مـن اختـلاق الموضوعـات الماسـة بالـشرف، ليتنـي أدخـل إلى أذهـان هـؤلاء لأرى كيـف يضعـون نهايـة تلـك المصيبـة التـي نمـر بهـا؟ هـل يتمنـون لهـا النهايـة السـعيدة؟ أم أنهـم يعشـقون الإثارة وينتظـرون منهـا مزيـدا مـن المفاجـآت التـي تزيـد جلسـاتهم حـلاوة، وتجعلهـم يشـتاقون لمقابلـة بعضهـم البعـض حتـى يتبادلـوا سرد أحداثهـا؟ وإن كانـت عـلى حسـاب سـمعتنا وأعراضنـا، عـلى حسـاب أعصابنـا وجهدنـا ووقتنـا، بـل عـلى حسـاب حياتنـا بأسرهـا.

نظـرت إلى زيـن فعرفـت أنـه تعـرض لموقـف مثلهـم، ولكنـه يـود التهـرب، لا يسـتطيع أن يحـكي مـا سـمع مـن النـاس، بـل كاد أن يصدقـه، لبراعـة الـراوي وقدرتـه عـلى الإقنـاع.

كان زيـن ينتظـر طابـور الصبـاح في المدرسـة مـع زملائـه المعلمـين، عـلى الأريكـة بجـوار البـاب لمراقبـة سـلوك التلاميـذ أثنـاء دخولهـم وخروجهـم في تلـك السـاعة السـابقة لدخـول الفصـول.

جـاء إليهـم الأسـتاذ سـامح شـاحب الوجـه، وجلـس بجوارهـم، دون أن يلقـي عليهـم التحيـة وانـصرف بوجهـه بعيـدا، ليسـألوه عـن سـبب وجومه.

_ خير يا أستاذ سامح، مالك ع الصبح مبوذ ليه؟!

_ والله يا أستاذ بركات ما خير خالص اللي بيحصل ده، شكل القيامة هتقوم يا جدعان.

_ ما تقول حصل إيه وخلصنا، الجرس هيضرب وهننكشحوا على الفصول.

_ عارفين علاء زيدان اللي شغال محاسب في البنك الأجنبي ده.

هنا استثار زين وانتبه له، ووقع فيه قلبه ذعر شديد، وصرخ في وجهه متوسلا إليه ليكمل الحديث.

_ ماله علاء يا أستاذ سامح؟

_ والله يا أستاذ زين موش عارف أقولك ايه، أنا عارف إنه صاحبك وحبيبك.

_ أرجوك يا أستاذ سامح اتكلم علي طول، ماله علاء؟

_ علاء صاحبك ليه سنتين خاطب البنت الساذجة دي اللي اسمها سلمى، أخت خالد

_ أيوة ويعدين؟

_ ما واحدة واحدة عليا يا أستاذ زين موش عارف أجمع الكلام بسببك.

_ والله حرام عليك تنقطنا بالكلام، أنا معدتي قلبت يا سامح أرجوك.

_ أتاري البيه كان يستغل سذاجتها، واتضح انها حامل.

وقع الخبر على زين كالصاعقة، وبدأ يتصبب عرقا، وهز رأسه، وفوجئ بالأستاذ سامح يهم واقفا، يتحرك ببطء أمامهم وهو يسرد التفاصيل التي لا نعرفها أنا ولا سلمى، وزين مخطوف ذهنيا وقتئذٍ.

_ البنت كانت تكشف عند دكتور أمراض نفسية من سنتين،

عـلاء عـرف إنهـا بتتعالـج مـن مـرض نفـسي وإنهـا سـاذجة، وهـو مسـكين عايـز يتجـوز بـأي شـكل، بـس مفيـش فلـوس يعيـش منهـا وكـمان مفيـش بيـت، لأن الشـقة الـلي حيلتهـم متجـوز فيهـا أبـوه، يعنـي مـش هينفـع هـو كـمان يجيـب شـقة.

راح الأفنـدي خطـب السـاذجة دي علشـان يحسـس نفسـه إنـه خاطـب، وأهـو بيزورهـا كل فـين وفـين، وبيكلمهـا في التليفـون، وعايـش حياتـه، وعيـش يـا حـمار لحـد مـا يشـتغل ويأجـر شـقة ويفرشـها، وأهـل البنـت كـمان مـا صدقـوا إن حـد يخطبهـا علشـان يدبسـوها لـه، قالـوا فرصـة وجـات لحـد عندنـا ونسـتغلها، لحـد مـا الـواد ربنـا كرمـه، واشـتغل في بنـك أجنبـي، وبيقبـض مرتـب أد مرتـب مديـر الإدارة التعليميـة عـشر مـرات، وحابـب يخلـع مـن الموضـوع، وعلشـان ربـك بيفضـح عبـاد السـوء، البنـت طلعـت حامـل في الشـهر التـاني، و الدكتـور كتـب تقريـر إن البنـت سـاذجة وبتعـاني مـن مـرض نفـسي، وإن الـواد عـلاء ده مجـرم يسـتحق العقـاب.

لم أسمع في حياتي عن مؤلف حكايات مثل الأستاذ سامح، حتى زين صديقي الذي يثق بي ثقة عمياء، كاد أن يصدق ما يرويه سامح، من تسلسل الحكاية، وجاهزيتها للوقوع على المسامع والمرور بسلام إلى العقل، الذي يصرح له بمس المشاعر ليتم تصديقها فتصبح واقعا.

حتى إن زين فزع من اتصالي وترك المدرسة وأتاني مسرعا ليعرف حقيقة الأمر.

كانت لحظات صعبة مريرة لم أكن أتخيل أني بطل كل تلك الروايات، فكان حتما عليَّ أن أقوم وقتها من مكاني مسرعا لأعود إلى سلمى، لأمنع كلام الناس من الوصول إلى مسامعها.

***

لا أدري ما الذي يجلعني أثق بها هكذا، لم يخطر ببالي لحظة واحدة انها كانت تخونني أنا شخصيا، وشيئا ما حافظ على عذريتها .. لا..لا..لا.. لا أصدق أن سلمى تخونني، هي لا تستطيع القيام بأي عمل ينافي شيمها أبدا، كل ما أعرفه أنها بريئة براءة لا تقبل الشك فيها أبدا.

ذهبت إلى سلمى، وأنا أسبق ظلي رغم أن الشمس خلفي، هرعت إليها وكأني أعرف أنها في أمسِّ الحاجة لوجودي بجوارها الآن، وكأني ذاهب لأنقذها من الوقوع بين يدي الفك المفترس.

طرقت الباب عليها، ففتحت لي والدتها وهي تبكي ولم يكن هناك أحد بالصالة.

_ مالك يا أم خالد في إيه؟

_ خالد قفل على سلمى الباب بالمفتاح من جوة، ونازل فيها حساب الملكين.

_ خالد ده مش بني آدم.

اندفعت ناحية باب غرفة نومها وطرقت الباب طرقات شديدة، لكن دون جدوى.

_ افتح يا خالد... افتح يا خالد متبقاش متخلف... افتح يا خاااالد.

لم يفتح خالد ولم يرد على ندائي، فتراجعت للخلف خطوات وقمت بدفع الباب بكل قوة.

وجدت سلمي مقيدة من يديها وقدميها بالسرير، وفمها مغلق بكمامة فم لاصقة لا تستطيع الكلام، و خالد يربط حبلا في سقف الغرفة ويجهزه لوضع الانتحار ليستعد لشنقها.

كانت سلمى تراقبه بخوف شديد وهي ترتعد، ترى خالد يعقد الحبل في منتصف الغرفة ويقيس دائرة الرقبة، تتمني لو تصرخ لتستغيث بالدنيا كلها لتنقذها.

المسكينة تراقب الموت وهو يُعَد لها، عيناها تدمعان، وحركات رأسها تتوسلان إليه أن يمتنع عقد حاجبيها يرسم علامة استفهام، كأنها تقول لماذا كل هذا القهر؟ ما سبب ميولك للانتقام؟ هل تفكر يا خالد للحظة واحدة أنك تربط ذلك الحبل لأختك، شقيقتك، الأقرب رحما إليك؟

لم أتحمل المشهد، فوجدتني أمسك خالد الواقف على الكرسي في منتصف الغرفة وأحمله بين يديَّ وألقي به على الأرض، ثم أرفعه من الأرض لألقي به ثانية، ورفعته وتبادلت يداي اللكمات على وجهه.

لم يستطع خالد الدفاع عن نفسه، لسرعة لكماتي، وشدة غضبي.

دخلت أمه لترى المنظر، وهي تصرخ، تسرع نحو ابنتها.

_ بنتي بنتي سلمى بنتي .. حرام عليك يا خالد يا ابني هتموتني ناقصة عمر حرام عليك.

_ من غير صراخ يا أم خالد، فكيها بسرعة.

قامت أم خالد بحل قيود سلمي، وأنا ألقيت بخالد على الأرض مغشيا عليه.

_ ليه يا خالد بس توصل الأمور للخنق الله يخرب بيتك؟ مفيش رحمة.

نظرت إلى سلمى التي تسلم نفسها للقيود، لا تصدق أنها عادت للحياة، تلقي يديها على الأرض، وتمد رجليها بطولهما كما كانتا، وتنظر ناحيتي دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وأمها تحاول

مساعدتها على القيام دون جدوى.

تقدمت إليها دامع العينين، فرفعتها من الأرض ووضعتها على سريرها، ولم أستطع بكاء أمها فبكيت بنحيب يعلو نحيبها، ما كنت أحب ان أرى سلمى على هذه الحالة أبدا.

أوقفت خالد وسكبت الماء على وجهه ليستفيق، ففتح عينيه.

_ انت ايه يا خي ، قالولك ان أختك عار عليهم، جاي تقتلها بيدك، انت ايه من غير عقل؟

_ انت انسان واطي يا علاء، أنا عرفت النهاردة بس أن انت ورا كل اللي حصل لأختي ده.

_ و ده عرفته ازاي ان شاء الله الكلام ده؟

_ أنا رحت لأستاذ في كلية طب، وسألته عن موضوع حمل أختي سلمى، وقال لي كل حاجة بصراحة، وعرفت انك انت السبب في كل البلاوي اللي بتتحدف علينا دي.

_ وقال لك ايه الأستاذ الدكتور بتاعك يا ترى؟

_ الدكتور قال لي طالما حامل وهي لسة عذراء ولسة مخطوبة يبقي مفيش غير سببين اللي العلم والعقل يقبلوهم، والسببين وراهم انت، وأنا ناوي أخلص عليك بعد ما أخلص عليها.

_ لما تخلص نفسك من الوكسة اللي انت فيها دي، أنطق، قال لك ايه الدكتور؟

_ أنا مش هعرف أقول كلامه زي ما هو قاله، بس هما سببين وانت أساسهم.

_ واسمه ايه الدكتور ده وأنا أروح أسأله معاك تاني، يا أبو مخ فاضي.

_ أنا مش هروح معاك أماكن يا علاء، أنا لو انفردت بيك هقتلك.

_ نـروح للدكتـور نسـأله، ولـو طلـع كلامـك صـح اقتلنـي، بـس أرجـوك ترحـم المسـكينة دي يـا خالـد لحـد مـا نتأكـد مـن الموضـوع، سـيبك مـن عمـك رأفـت وأفـكاره، ده نـاوي يقـضي عليكـم خالـص، أنـا قلـت قدامـه هتجـوز سـلمى، مـد بـوذه شـبرين قدامـه ومـشي.

_ انـت بتشـتغل نفسـك ولا بتشـتغلنا، فـين شـقتك، فـين الفلـوس الـلي معـاك الـلي هتفـرش بيهـا الشـقة في أسـبوع زي مـا بتقـول، انـت معـاك سـنة في الشـغل علشـان تقـدر تدفـع خلـو شـقة.

_ النهـاردة هـنروح للدكتـور نسـأله أنـا وانـت، ولازم أعـرف رأيـه إيـه في المصيبـة الـلي احنـا فيهـا دي، أمـا سـلمي، بالطـول بالعـرض هتجوزهـا، هنكتـب الكتـاب الأسـبوع ده وهنعلـن للدنيـا كلهـا إنهـا مـراتي، و بعـد كـده هأجـر شـقة بـدون خلـو، والـلي قاصـد خـير ربنـا بيكرمـه.

_ سرعتك في الجواز دليل إنك بتصلح غلطتك.

_ حـاضر يـا خالـد، نفـوق أختـك دي الـلي بهدلتهـا و بعـد كـده بإرادتـك أو غصـب عنـك هـنروح للأسـتاذ ده، حتـي لـو في عيادتـه، ونسـأله عـن السـبب العلمـي بتاعـه ده.

قـام خالـد منصرفـا عـن الغرفـة، وخرجـت أم خالـد مـن الغرفـة تحـضر عصـير الليمـون، ولم أتـردد لحظـة واحـدة في التحـرك ناحيـة سـلمى، وجلسـت جوارهـا وأنـا مشـفق عليهـا، وهـي تراقبنـي بعينـين صامتتـين، فمـدت يدهـا ببـطء، تحـاول أن تمسـك يـدي، فقدمـت يـدي إليهـا، حتـى لا أرهقهـا في تقريـب يدهـا، فأسـندت خدهـا عـلى يـدي، وقامـت بتقبيلهـا، لأول مـرة منـذ خطبتنـا، ولكـن قبلاتهـا لم تكـن سـوى قبـلات مسـكين قدمـت لـه المسـاعدة، كانـت قبلاتهـا عرفانـا بالجميـل لتلـك اليـد التـي رفعـت عـن كاهلهـا عبئـا ثقيـلا.

_ لا يا سلمى، اياك تنكسري كده.

ورفعت يدها فطبعت في ظهرها شفتيّ، ولم أرفعهما إلا بدخول أمها تحمل صينية مستديرة عليها كوبا من عصير الليمون.

_ ربنا يبارك فيك يا علاء يا بني وما يحرمنا منك.

_ خالد راح فين يا أم خالد.

_ خالد قاعد برة، بس عيونه بتدق شرار.

ساعدت سلمى كي تتكئ على السرير في نصف جلسة، حتى تستطيع شرب كوب الليمون كانت غارقة في دموعها الصامتة تنظر إليَّ.

_ خالد كان هيموتني يا علاء، أنا شفت الموت والله، شفت الموت يا علاء، كان هيخنقني.

_ ما عاش ولا كان اللي يخنقك وأنا على وش الدنيا يا سلمى.

انفجرت سلمى في البكاء وهي تردد : متسيبنيش يا علاء متسيبنيش.

فوجدتني أضمها إلى صدري وأنا أبكي، بكاء الرجل الكبير الذي تحتضر أمه بين أحضانه احتضنتها كما احتضنت أمي في لحظات وداعها، وأنا أراها تفارق الحياة.

_ لا يا سلمى، أمي مش هتموت تاني، مش هتموت تاني يا سلمى، أنا سندك في الدنيا دي ومش هسيبك لحظة بعد النهاردة، لحد ما نشوف حل لكل اللي بيحصل لنا ده.

ساعدتها ووضعت كوب الليمون عند طرف شفتيها، وساعدتها حتى شربت نصفه، وأومأت لي أنها تود أن تسند رأسها على الوسادة لتستريح، فساعدتها برفق وكأنها طفلتي حديثة الولادة حتى استوت على فراشها.

***

خرجت إلى خالد، ورافقته إلى ذلك الأستاذ بكلية الطب لأعرف منه حقيقة الأمر حتى أستطيع إيجاد الحلول، فكلما مرت الدقائق، ازدادت القصص و اختلقت الناس الأحاديث، وأصبحت أنا وسلمى وليمة طازجة على كل الموائد.

وصلنا إلى العيادة، و قابلنا موظف الاستقبال المسئول عن تنظيم الدخول إلى غرفة الكشف.

_ ممكن نقابل الدكتور؟

_ حضراتكم حاجزين من إمتى؟

_ لا إحنا مش حاجزين، بس لازم نقابله ضروري.

_ أنا آسف جدا، مش هينفع تدخل للدكتور بدون حجز مسبق.

_ بس احنا معانا حالة خطيرة، حياة أو موت.

_ دي عيادة نساء وتوليد، وأنا مش شايف معاكم حالات.

_ هنستفسر منه استفسار صغير ممكن يكتب الحياة لبنت مسكينة.

_ أنا آسف جدا، الناس الموجودة بالعيادة دي حاجزة من أسبوع وأكتر كمان.

_ إحنا مش هنحجز، إحنا هنستفسر بس.

ثار خالد على ذلك الشاب المسئول عن الحجز، وأراد أن يمسكه من ملابسه ويبدأ مشاجرة معه، ولكني تفاديت الموقف سريعا وجذبت خالد إلى الخلف، وأخرجت عملة ورقية قيمتها عشرين جنيه، وقدمتها لذلك الشاب لا يراها أحد في العيادة سواه.

_ الله يبارك فيك يا أستاذ تدخلنا للدكتور، هنسأله واحنا واقفين، أنت بس قول له حياة أو موت و هو هيقول لك سيبهم يدخلوا.

مـد الشـاب يـده بحركـة خفيفـة بمحـاذاة المكتـب الجالـس عليـه، وأمسـك بالعشريـن جنيـه، وجذبهـا إليـه قابضـا عليهـا، ثـم وضعهـا في جيبـه، وأشـار لنـا بالجلـوس بجـوار مكتبـه.

لم تمـر دقائـق حتـى خرجـت الحالـة التـي في غرفـة الكشـف، ودخل الشـاب إلى الغرفـة ثـم خـرج إلينـا يشـير لنـا بالدخول.

دخلـت ومعـي خالـد إلى الطبيـب الـذي يرتـدي ثـوب الوقـار، تحمـل كل شـعرة بيضـاء في رأسـه عمـرا طويـلا مـن العلـم والمعرفـة في مجـال الطـب، وتخـرج مـن بـين شـفتيه ابتسـامة قـادرة عـلى رفـع الألم عـن الحالـة التـي تُعـرض عليـه، ويملـك مـن الـذكاء مـا يجـب أن يملكـه كل أطبـاء الدنيـا في شـتي التخصصـات.

سردت عليـه حكايـة سـلمى، ومـا نمـر بـه، فـكان يتمتـع بحسـن الإصغـاء للحديـث، ولم يتكلـم إلا بعـد مـا انتهيـت مـن كلامـي، فهـز رأسـه قائـلا:

_ أنـا قلـت لصاحبـك ده الصبـح لمـا سـألني في الجامعـة، حمـل العـذراء ده شيء غـير مقبـول عقـلا ولا علـما ولا منطقـا أصـلا، والحالـة الوحيـدة الـلي اتسـجلت في عمـر البشريـة، كانـت حمـل السـيدة العـذراء مريـم عليهـا وعـلى السـيد المسـيح السـلام، وحملهـا السـيدة مريـم كان معجـزة طبعـا وأكيـد حضرتـك عـارف كـده.

_ طيـب الحالـة الـلي معانـا دي يـا دكتـور، تـلات دكاتـرة أكـدوا إنهـا حامـل، ومنهـم دكتـورة تأكـدت مـن حملهـا.

_ لـو ده صحيـح فعـلا، يبقـى احنـا قـدام حالـة مـن اتنـين بتحمـل فيهـم العـذراء، بـس تركـزوا معايـا شـوية.

_ اتفضـل يـا دكتـور، احنـا نـاس مثقفـين بـردو وهنسـتوعب كلام حضرتـك

_ الحالـة الاولي إن الفتـاة ممكـن تكـون بتملـك غشـاء بـكارة مطاطـي، وده لا يـزول بالإيـلاج زي باقـي الأغشـية، وعلشـان كـده تبدو الفتـاة في كشـوفات العذريـة أنهـا لسـة عـذراء، وممكـن تحمـل طفـل كـمان وغشـاءها لم يـزول.

_ و ايـه الحالـة التانيـة يـا دكتـور؟ لأن سـلمى عمرهـا مـا اتعرضـت لأي حالـة مـن دي.

_ أنـا مليـش دعـوي بسـلمى أو غيرهـا، أنـا بتكلـم عمومـا، وياريـت تسـيبني أتكلم.

_ أنا آسف يا دكتور، اتفضل حضرتك.

_ الحالـة التانيـة .. ودي حدوثهـا وارد بنسـبة ضئيلـة جـدا، وهـي إنهـا ممكـن تحمـل وهـي عـذراء وبـدون إيـلاج أو غشـاء مطاطـي.

نظـرت إلى خالـد فوجدتـه في قمـة تركيـزه، وأنـا فتحـت عينـيّ وأذنيّ وأنفـي وكل حـواسي لتلقـي الحالـة الثانيـة بـشيء مـن التركيـز، قـد تكـون هـي المقصـودة بحالتنـا.

_ ايه هي يا دكتور؟

_ حالـة الحمـل دي بتحصـل في حالـة العمليـات الجنسـية الناقصـة، والـلي بتتعـرض فيهـا الفتـاة لقـذف بـدون إيـلاج في أماكـن معينـة، وهنـا قـد تخـترق الحيوانـات المنويـة الغشـاء وتنفـذ إلى الرحـم وممكن تكـون عمليـة زي دي هـي السـبب في حالـة الحمـل.

هنـا سـقطت الكلـمات عـلى رأسي سـقوط أحجـار مبنـى مكـون مـن عـشرات الطوابـق عـلى رأس حارسـه الغـارق في نومـه.

_ مش قلت لك يا علاء إنك السبب.

_ اسـتنى انـت يـا خالـد لحظـة.. بـس يـا دكتـور دي متعرضتـش لأي حاجـة مـن دول.

_ يبقي تجيبها لي وأنا أكشف عليها بنفسي، يمكن أفيدك أكتر، وياريت دلوقتي تتفضلوا علشان تفسحوا المجال للحالات اللي برة.

نظرت إلى خالد الذي استعاد غضبه، وتفهم الأمر جيدا وعرف أن أخته مذنبة لا محالة وخرجنا سويا من العيادة، و اتجهنا ناحية موقف الميكروباص، وركبنا على مقعد واحد واجمين لا يكلم أحدنا الآخر.

جاءني الشيطان من يساري، يوسوس إليَّ محاولا رسم الصورة الكاملة لما حدث.

أتاني الشيطان ليربط لي بين ما سمعناه من استشاري النساء والتوليد، و بين ما تمر به سلمى من حالة الحمل المفاجئ الذي تعرضت له، وقد أكد لي الأخصائيون أنها لم تزل عذراء.

أصغيت إلى شيطاني كما كنت منصتا لسماع تشخيص الطبيب لحالتنا، فربما يعرف الشيطان ما لا أعرفه، أو يقنعني بما لم أستطع أن أقنع به نفسي من شدة حبي وتمسكي بسلمى خطيبتي.

قال لي شيطاني:

_ لا بد أن تقف مع نفسك دقائق يا علاء، حتي لا تندم بعد ذلك، لا تجعل إشفاقك على سلمى يتسبب في إقدامك على الزواج بها، دون أن تعرف كيف حملت، وممن حملت، أنا أعلم تماما أنك إنسان خلوق، طيب القلب، تشفق على فتاة خطبتها تلك تلك الفترة، تجملت فيهما أمامك وارتدت ثوب العفاف في زياراتك، لتوهمك أنها لم ولن تعرف رجلا غيرك، وها هي ذا حقيقتها تنكشف أمامك يا علاء.

كيف تكون شابا مثقفا، وتصدق أنها حامل دون أن يمسها أحد، فمن أين لها بتلك الحيوانات المنوية التي قال عنها

الطبيـب؟ وأنـت تثـق في نفسـك تمـام الثقـة؟ مـن أيـن لهـا بذلـك الجنـين؟ اسـتيقظ لنفسـك ولا تكـن فريسـة سـهلة لادعائهـا الـشرف هـي ووالدتهـا أمامـك، فالأمهـات هـن سـبب انحـراف الفتيـات، هـن السـبب في خـراب كل البيـوت.

لا بـد أن تعـرف يـا عـلاء أن أم سـلمى تعـرف الحقيقـة الكاملـة لهـذا الحمـل، وتعـرف أن جارهـم هـو والـد الجنـين.

ضربني خالد بقوة على كتفي فانتبهت له.

_ ايه يا خالد بتضرب ليه؟

_ مـا أنـا ليـا سـاعة بنـادي عليـك يـا عـلاء يـا عـلاء يـا زفـت، وانـت مـش معايـا خالـص.

_ عايز ايه؟

_ هتعمـل ايـه دلوقتـي بعـد مـا عرفـت انـك انـت السـبب في كل المصايـب دي؟

_ بردو هتقول لي اني السبب في المصايب دي؟

_ يعني ايه؟ ما انت سمعت الدكتور بيقول ايه.

_ طاب استني ننزل من العربية، مش ناقصين فضايح.

_ محدش يعرفنا فيها العربية دي، قول لي هتعمل ايه.

_ اللي فيه الخير يقدمه ربنا يا خالد.

أدرت وجهـي بعيـدا عـن خالـد، أبحـث عـن شـيطاني الـذي فـر مني بعـد مـا ألقـى عـلى مسـامعي تلـك الكلـمات، تركنـي شـيطاني قبـل أن أخـبره أن الطبيبـة أكـدت لي أنهـا لم تـزل عـذراء، وأن الطبيـب الآخـر قـال أنهـا عـذراء، كيـف لهـا أن تعـرف أنهـا لـن تحمـل؟ أيـن أنـت أيهـا الشـيطان؟ تعـالى هنـا أخـبرني، لا تتركنـي أعـاني مـن وساوسـك دون أن تقنعنـي بالأمـر كلـه، أيهـا الشـيطان أيـن أنـت؟ أيـن أنـت؟.

يـا إلهـي! لم أدر مـا الـذي غـيرني فجـأة هكـذا؟ لم أعـد أطـق سـلمى ولا مـا تمـر بـه سـلمى، لا أتحمـل خالـد جـواري لأني أشـم فيـه رائحتهـا، ليتنـي تركتـه يقتلهـا لننتهـي مـن كل تلـك الأفـكار.

وصلنـا إلى شـارع سـلمى، ونزلنـا مـن السـيارة، وتركـت خالـد يعـود إلي بيتـه وحيـدا، وانصرفـت إلى بيتنـا، وأنـا سـارح أفكـر في أمـري الـذي وصلـت إليـه، هـل أتـزوج بتلـك الخاطئـة التـي خانتنـي وخانـت إخـلاصي لهـا ولحبهـا؟ هـل أتزوجهـا مشـفقا عليهـا ولا أشـفق عـلى نفـسي وأبي؟ كيـف يحـدث كل هـذا في يومـين فقـط؟ مـا الـذي وصلـت إليـه الآن؟.

دخلـت إلى غرفتـي وأنـا أحمـل همـوم الدنيـا بـين جنبـيَّ، وصـوت هاتفـي يـرن مـرارا وتكـرارا ولكنـي لا ألتفـت إليـه، فالمتصـل سـلمى.

كلـما نظـرت إلى شاشـة هاتفـي المحمـول وجـدت فيـه سـلمى تتصـل بـك، وأنـا لا أسـتطيع الـرد عـلى سـلمى، ولا حتـى تذكرهـا.

ألقيـت بهاتفـي جـواري، وأنـا أعلـم أنهـا تتصـل بي لأنقذهـا مـن شرور خالـد، ولكنـي هـذه المـرة أتمنـى لـو يتصـل بي خالـد يخـبرني أنـه تخلـص منهـا ليقتلهـا، فيسـتريح قلبـي.

نعـم تلـك أمنيتـي الآن، بعـد أن صـدق الشـيطان، فمـن أيـن أتى لهـا هـذا الحمـل؟ لا بـد وأنهـا ضاجعـت رجـلا، وكـدت أن أكـون ضحية تلـك العمليـة التـي دبروهـا لي بليـل لأقـع في شـباكها.

شـكرا لـك أيهـا الشـيطان فقـد جئـت في الوقـت المناسـب لتنقـذني، لـولم يـك صادقـا لمـا أخـبرني بالحقيقـة، بعـد مـا تأكدنـا مـن التفسـير العلمـي لظاهـرة حمـل سـلمي وهـي تحتفـظ بعذريتهـا.

هاتفـي لم يتوقـف عـن النـداء تلـك اللحظـات، فأخـذني فضـولي لأجيـب سـلمى وأرد عليهـا، لأعـرف مـا الـذي فعلـه فيهـم خالـد،

فرأيتها تسأل عن سبب عدم عودتي مع خالد إلى بيتهم، فأخبرتها أني مرهق الآن ولا أستطيع التقاط أنفاسي.

نزلت بعدها إلى الشارع وأنا في حاجة إلى أي عمل أفرغ فيه طاقتي المكبوتة لأنسى ما أنا فيه، فخرجت إلى الملعب وأنهكت نفسي في لعب الكرة مع رفاقي، حتى منتصف الليل، ولم أعد إلى بيتنا سوي تلك اللحظات التي أفكر أستعيد فيها ما لاقيته في يومي، كل ذلك الوقت منذ عودتي وأنا أحاول الخلود للنوم، ولكني راجعت يومي منذ لحظة المحاكمة ثم مقابلة رفاقي زين وهشام ومروان، ومحاولات خالد لشنق سلمى، ثم ذهابنا للاستشاري و إنصاتي لشيطاني إلى أن نامت عيني لعدة ساعات.

و لكن إلي أين تسير الأمور؟ لديَّ فضول شأني شأن أهل المنطقة، أود أن أعرف ما نهاية القصة؟ كيف تنتهي الحكاية؟ هل يقتلها خالد؟ أم يقتلها رأفت؟ أم يجتمعون عليها فيقتلوها بطعنة رجل واحد؟ أم أنهم ينتظروني أفي بوعدي لهم وأتزوج بها لأخلصهم من عارِ أصابهم؟.

***

استيقظت التاسعة صباحا على صوت والدي يطرق عليَّ باب غرفتي ليخبرني بأن خالي زاهر ينتظرني بالصالة.

_ يلا يا علاء خالك زاهر مستنيك برة.

_ خالي زاهر! انت متأكد يا بابا؟

_ هو أنا اتجننت يا علاء؟ ما تقوم يلا.

قمت من مكاني وأنا عي يقين أن والدي أخطأ في معرفة اسم الزائر، فخالي زاهر يكرهني منذ صغري، ولم يحضر عزاء والدتي، كيف يتذكرني الآن وهو لم يحضر عزاء أخته شقيقته؟

خـالي زاهـر الـذي يمتلـك مصانـع الجرانيـت والرخـام، ويمتلـك المحاجـر والمعـدات الثقيلـة اللازمـة للعمـل فيهـا، خـالي زاهـر الـذي يعمـل لديـه آلاف العـمال والمهندسـين، خـالي زاهـر يزورنـا الآن! ويطلبنـي بالاسـم، لالالا بـد أن والـدي أصابـه شيء مـا.

خرجـت مـن غرفتـي لأتبـين الأمـر، فوجدتـه ببدلتـه الفاخـرة وسـيجاره الـذي يشـبه مقبـض الأبـواب العتيقـة، ويجلـس في كبريائـه واضعـا قدمـه اليمنـي فـوق اليـسري بالصالـة.

تقدمـت إليـه وأنـا في قمـة ذهـولي سـائلا نفـسي، مـاذا يريـد منـي هـذا الرجـل، الـذي لم يقـف حتـي لمصافحتـي؟ لا بـد أنـه لم يـأتِ مشـتاقا لرؤيتـي، فمـن تجاهـل جنـازة أختـه، لا يمكـن أن يشـتاق لرؤيـة ابنهـا أبـدا.

_ صباح الخير يا خالي.

_ اسمي زاهر بيه يا ولد.

_ أنا آسف يا زاهر بيه.

_ ايه يا ولد الكلام اللي منتشر على ألسنة الناس ده؟

_ كلام ايه يا خالي! آسف .. قصدي يا زاهر بيه.

_ البنت خطيبتك حامل منك والدنيا كلها سمعت الخبر.

_ مش حامل مني يا زاهر بيه، دي حامل وهي لسة عذراء.

_ يعني إيه حامل و لسة عذراء؟ انت هتشتغلني يا ولد انت.

_ ده كلام الدكاترة مش كلامي.

_ انت لازم تتجوز البنت دي وتخلي كلام الناس ده كله يبطل.

_ انـا مـش هتجـوز واحـدة حامـل وانـا مـش عـارف مصـدر حملهـا ايه.

_ يعني مش ايه عارف مصدر حملها؟ الناس كلها بتتكلم.

_ مليش دعوي بحد، أنا عارف نفسي.

_ اسمع يا ولد انت، أنا داخل على منصب سياسي حساس، والجهات الأمنية بتتحرى عن الأقارب من الدرجة التانية، ولو سمعوا بالفضيحة بتاعتك دي، هتدمر كل حاجة، وابني كرم اجتاز اختبارات النيابة العامة، ومتوقف على التحريات دلوقتي، ولو موضوعك ده انتشر هتدمر مستقبل الولد، انت لازم تتجوز البنت دي، فاهم ولا مش فاهم؟.

_ يعني سيادتك جاي تحافظ على مستقبلك ومستقبل ابنك؟ وفي داهية مستقبلي أنا.

_ لما تكون انت السبب في كل ده لازم تتحمل نتيجة عمايلك.

_ أنا معنديش فلوس للجواز.

_ أنا مستعد أكتب لك شيك ب 100 ألف جنيه دلوقتي وتتجوز.

_ هههههه 100 الف جنيه ايه اللي تجوزني دي يا زاهر باشا؟

_ يكفيك كام؟

_ أنا علشان أتجوز عايز لي مليون جنيه، وبردو مش هتجوز.

_ اسمع يا علاء، أنا مش هضحي بوضعي ومكانتي وبمستقبل ابني علشان تصرفات ولد طايش زيك، أنا دلوقتي رايح المكتب، وتعمل حسابك انك هتتجوزها غصب عنك، وهكتب لك شقة في البرج بتاعي، وهكتب لك شيك بمليون جنيه تتجوز منه وتعيش بالباقي.

انصرف خالي زاهر وهو في قمة ثورته وغضبه، ليضع بداخلي علامة استفهام جديدة، بل علامة استنكار لهذا المجتمع الزائف الذي نعيش فيه.

يـا لهـا مـن مصيبـة كشـفت عـن مصائـب، لم يكـن حمـل سـلمى بمثابـة الأمـر المذهـل لاسـتحالة حدوثـه، ولكنـه كان مذهـلا لمـا لـه مـن أثـر السـحر الـذي رفـع الغبـار عـن طبائـع البـشر، بـل كشـف النقـاب عـن ذلـك العهـر الـذي نعيشـه.

بـدأ النـاس باختـلاق القصـص والحكايـات، عـن طبيعـة علاقتـي بسـلمى، و هـا هـي ذا تنتهـي بخـالي زاهـر الـذي لم يـأتِ لينقـذني مـن مصيبتـي بثروتـه التـي يمتلكهـا، لم يـأتِ خـالي منـذ عامـين ليعـرض عـليَّ المسـاعدة في إتمـام أمـر زواجـي مـن سـلمى، ولكنـه أتي الآن ليدفـع مليـون جنيـه، وشـقة فاخـرة في بـرج سـكني أقيـم في منطقـة راقيـة، لينقـذ منصبـا سياسـيا لم يتقلـده بعـد، ولينقـذ وظيفـة قضائيـة ينتظرها ولـده، جـاء ليدفـع تلـك المبالـغ لينقـذ سـمعته، ولكنـه تأخـر في عرضـه هـذا، تأخـر كثـيرا جـدا، ليتـه طـرق بـابي صبـاح أمـس، كنـت تناوبـت عـلى وجهـه بقبـلاتي، وأسرعـت إلى سـلمى لأبشرهـا بحـل مشـكلتنا بتلـك الأمـوال، ولكـن أيـن سـلمى مـن نفـسي الآن؟.

دخلـت إلى غرفتـي وأنـا في أمـسِّ الحاجـة للنـوم، كـم أنـا محتـاج إلى المـوت لينتشـلني مـن هـذا العـالم المزيـف، إمـا مزيـف في كينونتـه، أو مزيفـا لحقائـق المحيطـين بـه.

وجـدت نغمـة الرسـائل عـلى هاتفـي المحمـول تتـوالي تباعـا، فأقدمـت عليـه وأسـندت رأسي عـلى وسـادتي وفتحـت الرسـائل، فتحتهـا فوجدتهـا مـن سـلمي تقـول فيهـا :ـ

«عـلاء .. أرجـوك، أبـوس إيديـك ورجليـك، ورحمـة أمـك الغاليـة يـا عـلاء، مينفعـش انـت بالـذات تتغـير ناحيتـي، واللـه أنـا مـا متمسـكة بالحيـاة غـير علشـانك، وإلا كنـت انتحـرت مـن اللحظـة الأولى الـلي سـمعت فيهـا بالمصيبـة السـودة دي، مـش عارفـة ليـه حاسـة أنـك

متغير من ناحيتي من ساعة ما رجعت من عند الدكتور؟ هي دي وعودك انك هتفضل جنبي ومش هتسيبني؟ هو ده كلامك يا علاء على انك بتثق فيا ثقة عمياء؟ هي ليه الثقة دي اتبخرت مع أول زيارة للشيطان يوسوس لك فيها؟ حرام عليك أنا بتعذب والله، بتعذب يا علاء، رد عليا أرجوك، عبرني يا آخي، قول لي مش عايزك علشان أقتل نفسي وأوفر عليك وعليهم كل اللي انتوا فيه، أنا تعبت يا علاء تعبت، والله ما خفت من الموت وأنا شايفة خالد بيجهز لي مشنقتي في الأوضة غير علشانك، كنت خايفة أموت وأسيبك يا علاء، أنا نفسي أموت بجد، بس مش عايزة أموت واسيبك .. تجاهلك ليا ده أصعب عليا م اللي كان هيعمله خالد فيا، أنا بتخرط أرجوك، لو انت مصدق فيا حاجة، أنا مستعدة أروح معاك عند الدكتور بكرة، واللي هيقول عليه هصدقه معاك، بس متسيبنيش في نص الطريق، وبعدها هقتل نفسي وأريحك مني، هقتل نفسي علشان انت تعيش مرتاح، مش علشان أنا ارتاح، أرجوك يا علاء ارحمني، كفاية اللي أنا فيه، حرام يا علاء، حرام، ارحمني».

_ ليه بس يا سلمى بتعملي فيا كده، ليه؟.

لم أشعر بنفسي وأنا أبكي كالطفل الصغير أثناء قراءتي لرسالتها، رأيت في كلماتها صدقا كنت قد اعتدت رؤيته في عينيها وهي تخاطبني، كلماتها لمست قلبي، فطردت شيطاني الذي يلازمني، وأقنعت نفسي أن بيني وبينها استشاري النساء والتوليد.

لكن.. ما الذي يحدده طبيب النساء والتوليد؟ حتما سيخبرنا أنها حامل وعذراء، وأن حملها نتج عن إحدى السببين الذين ذكرهم لنا.

يبدو أنني عدت لسابق عهدي بسلمى، أنا مشفق عليها الآن، كلا بل أثق فيها، هي لم ترتكب جرما، نعم سلمى لم ترتكب جرما، و هذا الأمر قد يحدث مرة كل ألف سنة، وقد حدث هذه المرة فكان من نصيبها، نعم هو كذلك، لالا هو أمر يحدث لمن يحب بصدق ويري في خطيبته عوضا عن أمه، لا لا هي ليست هذا ولا ذاك، هي حقيقة كونية لم يتوصل لها الطب بعد.

نعم هي كذلك، وسيتوصل لها العلم يوما ما، وسيكللنا العالم بسبقه فيها، لالا هي اختبار من السماء لتري كيف نقبله، نعم هي كذلك، و ما دام المحيطون بنا قد اختلقوا أقوالا فهم كاذبون ودعاة شر، ونحن أولي خير، نعم فالخير دائما في المربع الآخر بعيدا عن الشر.

ارتديت ملابسي وأسرعت الخطي إلى سلمى، لعلي أرى في عينيها ما يكمل اقتناعي ببراءتها يكفي ما تلاقيه من هوان.

ذهبت إلى هناك، لأعاني ويلات الطريق ثانية، لأسمع من الناس ما لا أحب سماعه، لأرى بعيني هذه المرة التجمعات البشرية الهائلة، لم يجتمعوا لمناقشة الأمر بأسلوب علمي متحضر وتفنيد الآراء للوصول إلى تفسير مناسب، ولكنهم يستمتعون بالأحاديث الشيقة التي يبدعون سردها تباعا مصورين لبعضهم البعض مشاهد درامية سبقت ذلك الحمل فتسببت فيه.

وصلت إلى ورشة إبراهيم الكاوتش، والتي فتحها أول مرة لتصليح السيارات والدراجات البخارية، ولم يكن في حسبانه يوما أن يفتح فيها فرعا يوما ما ركنا لسيرة الناس، ليدلي كل عضو فيه بدلوه في حديث الموسم، ليتولي أحد أفرادها المشاهد المثيرة، والآخر مشاهد الليل داخلي، وآخرون أقاصيص النهار.

توقفت عندهم ولم يشعر بي أحد، لأنهم مشغولون بتلك الروايات التي يرويها عليهم إبراهيم الكاوتش ورفاقه من الصنايعية بالورش والمحلات المجاورة، ليستغلوا تلك الفترة من النهار والتي يضعف فيها إقبال الزبائن، فيتبادلوا التقطيع في جسدي وجسد سلمى التي لم أعرف حتى الآن إن كنت أدينها وأوجه لها بيني وبين نفسي اتهاما مباشرا بارتكاب جريمة بعينها تسببت في حملها، أم أشفق عليها وأصدر قرارا ببراءتها.

كان إبراهيم الكاوتش جالسا في المنتصف وأمامه علبة الكشري يأكل فيها وهو يتكلم إليهم وهم ينصتون، تتغير ملامح وجوههم مع تغير الأحداث التي يرويها لهم الكاوتش، عما حدث بيني وبين سلمى، حتى أني تفاعلت معهم فقال لهم الكاوتش:

_ الواد علاء ده ولد مش ساهل أساسا، قال في نفسه الظروف معايا في الأرض، وأنا بكح تراب، و مش هقدر أتجوز سلمى، قوم يعمل معاها الدنيئة علشان يتورطوا معاه ويضطروا يجوزوها له، حتى لو مش هيقدر على مصاريف الجواز، يساعدوه المساكين دول بكل اللي يقدروا عليه، مصاريف فرح وفرش بيت، وأجهزة كهربائية، وكل اللي هتحتاجه الجوازة دي علشان تتم.

_ بس ده اتعين في بنك أجنبي يا معلم كاوتش.

_ بعد ايه اتعين في البنك، مش بعد ما ورط البنت معاه، وعمل اللي عمله معاها، ده مرة في يوم شم النسيم اللي فات ده، أخدها معاه الكورنيش قال إيه يفسحها، ما قعدش معانا غير نص ساعة بس علشان يخلي الناس تعرف إنه كان ع الكورنيش، وبعد كده اتصل بتوك توك جاله وسحب فيه البنت ومشي بيها، فاكرنا مغفلين طبعا ومختومين على قفانا، أنا سبت العيال مع

أمهم ع الكورنيش، وجيت واخد موتوسيكل الواد الناغي، وسحبت وراه، التوك يطلع من حارة يدخل في حارة وأنا وراه، لحد ما وقف عند فرش خضار على ناصية حارة في الوايلي، ونزل الواد علاء من التوك توك واشتري من الراجل شوية جزر على بطاطس على طماطم وبصل ورجع التوك توك تاني، ومشى بيهم، وأنا مكدبتش خبر وسحبت وراهم بردو، لحد ما وصلوا عند عمارة قديمة جدا و المدخل بتاعها هابط عن الأرض شوية، نزلوا من التوكتوك و دخلوا العمارة، رحت أنا ركنت التوكتوك ومشيت وراهم، هموت وأشوفهم رايحين فين، لحد ما دخلوا الشقة اللي في الدور الأرضي، و الواد كان معاه مفاتيح الشقة دي، و ناس الشارع عارفينه لأنه ولا حد كلمه ولا استغرب هو داخل الشارع بالبنت ازاي ولا أي حاجة، و بعدها جيت أنا راكب موتوسيكل الناغي ورجعت على طول.

_ شوف ازاي؟ يطلع منه كل ده ويعمل علينا احنا شريف وابن ناس.

ابتسمت ابتسامة ساخرة، وأقسمت بيني وبين نفسي أني لو سمعت القصة عن شخص آخر غيري لصدقت أحداثها، و لولا أني أنا بطل قصة إبراهيم الكاوتش لأطلقت سهام شتائمي على ذلك الخائن الذي استدرج خطيبته الساذجة إلى تلك الحواري.

قام من بين الجالسين رجلا أربعيني العمر، لم أره في حياتي، ولا أعرفه، ولا أظن أنه يعرفني، ظننت أنه سيصرخ فيهم لوقفهم عن ذلك الأمر، فتأهبت لأسمعه جيدا فقال :

_ أنا مرة كنت في القسم بتغدى مع زمايلي أمناء الشرطة، راح اتصل بيا الظابط يقول لي هات كل الأفراد اللي عندك طالعين حملة مستعجلة، قلت له هنروح فين يا باشا، قال لي هحكيلك في

الطريق، علشان الأمناء والأفراد اللي عندك ميعرفوش احنا رايحين فين لحد ما نوصل، قلت له أوامرك يا سيادة المقدم، ثواني هكون عندك أنا وكل اللي معايا، المهم يا ابراهيم لقيت قوة كبيرة واقفة قدام القسم، والكل شادد الأجزاء، ومستعد كإننا رايحين حرب سألت النقيب أحمد فتحي، احنا رايحين فين يا سيادة النقيب، قال لي والله ما اعرف، سألت زميله النقيب شهاب عبداللطيف، قال لي والله ما اعرف، وأول ما طلع المقدم محمد يونس من القسم، رحت قلت له ما ترسيني ع الدور يا باشا احنا رايحين فين بالظبط، قال لي هقولك انت بس، و تخليها في سرك لحد ما نوصل، حتى الظباط متقولش لحد فيهم، وقال لي اننا رايحين نهاجم وكر عمليات إجهاض بالمخالفة للقانون بيديروه أطباء فاسدين ومعاهم ممرضين من كام مستشفى حكومي كده، و أول ما وصلنا هناك، واقتحمنا الوكر ده، لاقينا، كل بنت معاها شاب قاعدين منتظرين الدور بتاعهم، سألني المقدم محمد يونس ان كان ليا حد في الناس دي أعرفه قلت له لا يا باشا معرفش حد لو عايز تقبض عليهم اقبض ولا يهمك، راح المقدم دخل على أوضة الإجهاض لقى الحالات اللي جوة، وقبض عليهم كلهم، وقبضنا ع الحالات اللي منتظرة دورها، ولاقيت الواد علاء ده ومعاه بنت عرفت بعدين ان اسمها سلمى، جيت مسكت فيه وضربته بالقلم، قلت له بتعمل ايه يا حمار هنا، الواد اترعش كده ومعرفش يتلم على أعصابه من قوة القلم، قلت له يا ابني انت مش ساكن في الشارع اللي جنب ورشة ابراهيم الكاوتش قال لي أيوة يا باشا ساكن هناك، قلت له كنت قلت لي يا غشيم، مش شايف المقدم بيسألني، رحت قلت له خد البنت اللي معاك وامشي من

هنا يلا، وطلع يجري وساب البنت تجري وحدها النقيب شهاب راح موقفهم ع الباب عايز يقبض عليهم، قلت له سيبهم يا سيادة النقيب دول تبعي، راح النقيب سابهم يمشوا.

_ انت غلطان يا سيادة البلوكامين كنت قبضت عليهم أحسن.

_ والله الواحد مش بيرضى يقبض على حد من المنطقة يا ابراهيم يا كاوتش يا خويا، علشان ميقولوش أهو بكري ابن الحتة أشهر أمين شرطة في الداخلية ومش بيخدم ناسها، ما انت عارف ان الكلام كتير في الموضوع ده.

هنا ضحكت بصوت عال لم أصدق ما أسمع، حتى أنهم رأوني، ونظروا ناحيتي، وتصفحوني من أعلى لأسفل، ونظرت لأمين الشرطة الكاذب وقلت له:

_ يعني انت عايز تفهم الناس، إن المقدم أخفى سر الحملة عن اتنين ظباط برتبة نقيب، وقال لك انت ع السر، وكمان المقدم ساب كل حاجة جوة الوكر وسألك لو ليك حد معرفة خليه يمشي، ولما طلع لك حد معرفة اسمه علاء، جيت ضربته بالقلم علشان مناداش عليك يقول لك الحقني يا باشا، ولما النقيب وقفه، انت أمرت النقيب يمشيه، و الناس طبعا مصدقاك.

_ انت مين انت علشان تكلمني كده؟ أنا بلوكامين القسم يا أستاذ متنساش نفسك.

_ كمان مش عارفني مين، ده انت سنينك سودة أساسا.

_ والله ما آجيلك لأجرجرك من رقبتك ع القسم واعمل عليك حفلة .

_ أولا لو رحنا القسم أنا وانت هخلي المأمور يحولك للمحاكمة العسكرية ع الكدب اللي بتكدبه ده، والناس دي كلها شاهدة عليه.

_ أنا مش بكدب على حد والناس عارفاني بقول الحقيقة.

_ يا راجل انت مش قادر تعرفني أنا مين .. طيب أنا علاء اللي انت عرفته في الوكر وضربته بالقلم، ولا عرفتني في الوكر لما شفتني أول مرة، ومعرفتنيش دلوقتي؟ يا نصاب يا أونطجي .. والله انتوا ناس عايزة الحرق بالنار، وانت أولهم يا ابراهيم يا كاوتش يا بتاع التوكتوك .. لو انت راجل صادق، هات ميكروباص يا كاوتش ناخد فيه الناس دي دلوقتي ونروح على الشقة اياها ونشوف ان كان في فرش خضار، ونشوف الأهالي هيعرفوني ولا لا.

_ روح يا علاء من قدامي دلوقتي، أنا مش بكلم حد ومش فاضي أروح أماكن.

_ خليكم انتوا هنا في سيرة الناس، واكدبوا على بعض، وانهشوا في لحم البني آدمين زي الكلاب، خلوا الدنيا كلها تتقدم وتسبقنا، واحنا يدوب نسبق الأحداث ونؤلف قصص على الخلق.

تركتهم وأنا ساخط على تلك القصص التي يختلقونها، وعلى تلك العقول التي تسمع لهم دون أن تعي ما يقولون، كيف يكون ذلك البلوكامين المتخلف، وابراهيم الكاوتش، هما وسائل الاعلام في المنطقة؟ ليقوموا بتأليف قصص خيالية على الناس فيصدقوها.

أنا لا أنكر أنني اقتنعت بالقصة التي ذكرها ابراهيم الكاوتش صاحب الورشة، وجذبتني أحداثها وتشوقت لمعرفة نهايتها، ولكني سخطت على الناس وهم يسمعون للبلوكامين الذي يؤلف قصة من وحي الخيال، يجعل من نفسه هو البطل فيها، بل هو قائد الحملة، عبارات لا يصدقها إلا شخص فاقد العقل، كيف يصدق الناس أن المقدم يخفي سر الحملة عن اثنين من الضباط المعاونين، ويفشي بيه للبلوكامين؟ بل كيف يصدق الناس أن المقدم يعرض

عليه أمام الناس إخلاء سبيل معارفه؟ بل يعطي أوامره للنقيب ليترك أحدهم يمشي، أي عقول تلك التي تصدق هذا المتخلف الذي يتكلم؟ والله إن هؤلاء و من يصدقونهم هم سبب تخلفنا.

وصلت إلى منزل سلمى وأسرتها، فوجدت العائلة مجتمعة هناك، تحت قيادة رئيس الحزب النازي بالعائلة، عمها رأفت، ولم تكن المسكينة بينهم.

_ دي العيلة كلها متجمعة بربطة المعلم أهو.

_ إسمع يا أستاذ علاء، انت لازم تتجوز البنت ولا تتلقى وعدك مني ؟

_ ومالـه يا عم رأفت أتجوزها من غير تهديد، هتجوزها لأني عارف إنها عمرها ما تغلط، لكن انت عايز تجوزها لي وانت بتشك في سلوكها، عايز تجوزها لي علشان تقول للناس إنك البطل الهمام اللي أجبرتني إتجوز بنت أخوك وأنقذ الفضيحة.

_ فين الفلوس اللي هتتجوز بيها؟

_ أكيد انت يا عم رأفت هتسلفني فلوس أتجوز بيها.

_ وأنا أسلفك فلوس ليه، هو إنا اللي غلطت.

_ مش انت اللي عامل كبير عيلة وبتشخط وتنتر وعايز تحمي عار بنت أخوك، يبقي انت اللي تدفع.

_ أنا مش هدفع غلطة واحد خسيس زيك.

_ يبقي ما تقولش مين يتجوز ومين يتطلق، اللي عايز يعمل كبير ويلم مصيبة حاصلة، يبقى راجل أد المصيبة، ويتكفل بكل مصاريفها.

_ انت عيل مش متربي.

_ بالعكس يا عم رأفت، أنا متربي، ومتربي جدا كمان، والدليل

مش هسيب خطيبتي في الظروف دي، مع إني مش سبب في حملها، لكن هصبر لحد ما أشوف رأي العلم النهائي في حالتها.

_ ما انت عرفت رأي العلم خلاص، و انت المتهم.

_ أنا لو حكمت ع الموضوع من نظريتكم، ممكن أتهم بنتكم بالخيانة، لأني عارف أني مش متهم، لكن أنا عاقل، واعتبرت كلام الدكتور ده كلام عام، مش خاص بحالة سلمى، وهستنى أعرف رأي الدكتور في سلمى نفسها، وبعدها أصدر حكمي ع الموضوع، وسلمى دي جزء مني، وأنا واثق في تصرفاتها، وعارف إن التشخيص الأخير هيكون في صفنا، وهستناه وهنتجوز.

_ الموضوع مش محتاج فلسفة.

_ أنا قلت محتاج علم مش محتاج فلسفة، والنهاردة هنروح أنا وهي وخالد للدكتور نفسه وتيجي إنت معانا يا عم رأفت، ونسمع كلام الدكتور ايه.

_ أنا مش جاي مع حد، مليش دعوي بالموضوع ده.

_ إيه يا عم رأفت، بتحاول تكون بعيد ليه؟ مش يمكن تكون النتيجة خير.

_ أنا مليش دعوى بالدكاترة، تروح انت وأخوها معاها وخلاص لحد ما نشوف آخركم إيه؟

_ على فكرة يا عم رأفت، انت عايز تخرب البيت ده، وتكون انت في السليم، و متقولش انك جاي تصلح اللي اتكسر، أو جاي تحمي العار، وإلا كنت صبرت للنهاية وانت ملهوف مستني تسمع براءة بنت أخوك، لكن كل هدفك سمعة عيالك، وعايز أخوها يبقى في وش المدفع علشان هو يقتلها، ويدخل المسكين السجن، ويقعد أبوها جنب أمها في حسرتهم مدى الحياة.

حـاول رأفـت أن يسـتجمع أي كلـمات يـرد بهـا عـلى اتهامـي لـه بالسـعي وراء خـراب الأسرة وتدميرهـا، ولكنـه لم يجـد كلمـة واحـدة يدافـع بهـا عـن نفسـه.

_ أنا جاي معاكم عند الدكتور النهاردة.

_ كـده عـين العقـل يـا عـم رأفـت، ومتخافـش مـش هخليـك تدفـع كشـف الدكتور.

_ هترجع لقلة الأدب تاني.

_ أنـا عايـزك تاخـد الموضـوع ببسـاطة يـا عـم رأفـت، عايـزك تطنـش النـاس وكلام النـاس، عايـزك تقتـل شـيطانك الـلي بيوسـوس لـك ده، قبـل مـا تفكـر تقتـل بنـت أخـوك، أو تحـرض أخوهـا يقتلهـا.

لحـد مـا نسـتنفذ كل وسـائل البحـث عـن الحقيقـة، سـاعتها نقتلهـا ونقتـل خالـد ونقتـل أبوهـا وأمـه نسـمع رأي العلـم ولـو طلعـت متهمـة، نولـع في البيـت كلـه، وأنـا أنتحـر لكـم وأوفـر عليكـم العـبء ونعمـل أحـلى شـغل لحسـاب الشـيطان، الـلي عايـز البـشر بركـة دم مـن أتفـه الأسـباب.

_ هتروح الساعة كام عند الدكتور النهاردة؟

_ بعد العصر على طول يا عم رأفت.

_ وأنا هلاقيك فين بعد العصر.

_ أنـا مـش هتحـرك مـن جنـب سـلمى وأمهـا لحـد العـصر يـا عـم رأفـت، لـو عايـز تمـشي انـت اتفضـل بـس أنـا كتفـي هيفضـل في كتـف خطيبتـي لحـد مـا الموضـوع ده ينتهـي.

_ تقعد جنبها ازاي؟ هي مراتك؟

_ أنـا مسـتعد أسـيبها خالـص يـا عـم رأفـت وأمـشي، بـس يـا تـرى هتقـدر تقعـد انـت جنبهـا لحـد العـصر تهـون عليهـا الـلي جواهـا،

هتقـدر تقعـد تخفـف عنهـا؟ مـش حـرام نـروح نـاكل ونـشرب، ونسـيبها في عـذاب، وبعـد كـده نرجـع لهـا نشربهـا عـذاب جديـد.

مـشى رأفـت دون أن يجيبنـي بكلمـة، وانطلـق خلفـه قطيـع العائلـة، ذوي الأوعيـة الفارغـة، التـي يملأهـا بالسُـم عندمـا يحتـاج إلى ذلـك، ثـم يفرغـه إذا تطلـب الأمـر تفريغـه، وان كانـت الضحيـة جنـاح مكسـور بالعائلـة.

_ فين سلمى يا أم خالد؟

_ هتكون فين قلب أمها، في أوضتها هتموت نفسها من العياط.

_ طاب أنا عايز أدخل لها.

_ يـا ريـت يـا ابنـي تدخـل لهـا، دي مـش بتفـوق م الـلي هـي فيـه غـير وانـت معاهـا، كأنـك بتنفـخ فيهـا الـروح.

طرقـت عليهـا البـاب، وسـبقتني إليهـا أمهـا تنبئهـا بقدومـي، فاعتدلـت سـلمى في جلسـتها، ودخلـت عليهـا وأنـا مبتسـم، لأمسـح عنهـا مـا تقـاسي، بـل لأدفـع عـن نفـسي اتهامـات عينيهـا اللتـين تعاتبانني في صمـت لأني تخليـت عنهـا بضـع لحظـات، تعاقبنـي لأني صدقـت شـيطاني ووضعـت الشـك فيهـا بعـد مـا سـمعت تشـخيص الطبيـب الـذي وضعهـا موضـع شـك الجميـع.

ابتسـمت لهـا ولم تشـفع لي ابتسـامتي، ولم تطفـئ نـارا تحرقهـا مـن شـتى النواحـي، وكأن تجاهـلي لهـا ليلـة أمـس كان بمثابـة مـادة سـائلة تسـاعد عـلى حرقهـا.

_ سـيدي يـا سـيدي ع الجـمال، ده احنـا وعيانـين زي القمـر، أومـال في الكوشـة هتكـوني عاملـة ازاي؟.

ظننـت أن سـلمي ستبتسـم لي كالعـادة، لكـن عينيهـا كانتـا أكـثر حـدةً وعتابًـا مـما كنـت أتوقـع، كنـت أظـن أنهـا فتـاة مستسـلمة،

تضحك لمداعبتي، وتحزن لتجاهلي، ولو عدت إليها بعد فترة من تجاهلي لها تفتح ذراعيها لتستقبلني بسعادة الأطفال في استقبال أبيهم الغائب.

لم أكن أعرف أن سلمى تحبس بداخلها تلك الشخصية القوية التي تتمتع بمخالب القط المفترس تظهرها لو شعرت بإهانة كرامتها استغلالا لوداعتها.

نظرت في وجهها وأنا أتقدم إليها بخطوات المذنب النادم، رسمت بين حاجبيَّ علامات الاستعطاف مستغفرا لها عن تقصيري في حقها، فرأيت في وجهها علامات الشجب اللاذعة قرأت في انعقاد حاجبيها رسالة شديدة اللهجة، كلمات تتهمني بالضعف والهوان، والتخلي عن حبيبتي التي اعتبرتها قطعة مني لا يمكنني التخلي عنها أبدا.

لم أشعر بنفسي وأنا أتقدم إليها، وأجلسها بجواري وأمسك يدها، وأقبلها برفق لعل قبلاتي تخفف عنها شيئا من الأسى، أو اعتذاري يجعلها تترفق بي فلا تشتد عليَّ في عتابي.

_ أنا آسف جدا يا سلمي، مكنش ينفع أعمل اللي أنا عملته ده.

_ وانت عملت ايه علشان تعتذر عنه.

_ مكنش ينفع أطنشك امبارح.

_ وهو ده بس الذنب اللي ارتكبته في حقي يا علاء؟

_ و هو في ذنب أجرم من كده يا سلمي؟ أنا آسف جدا يا نص روحي المتعلقة بين السما والأرض.

_ لو نص روحك يا علاء، مكنش كلام الدكتور أثر فيك بالشكل ده، وخلاك فجأة تبقى زي عمي رأفت في نظرتك ليا، يمكن عمي

رأفت بييجي ويسأل بغطرسته، لكن انت هربت يا علاء، جريت مني ودفنت راسك في الرمل، نسيت انك الوحيد اللي بتطبطب عليا في الغابة اللي أنا عايشة فيها وكلها منتظرة لحظة دبحي.

أو جعتني كلماتها، ورفعت يدها ثانية وطبعت فيها قبلة طويلة، ووضعت يدي على فمها حتى لا تكمل كلماتها، ثم رفعت عيني وصوبتهما تجاهها لترى دموعي، فوجدت دموعها أغزر مني، رأيت فيهما البراءة من كل ذنب نقذفها به، لم تكن سلمى تلك الفتاة التي تخطئ أبدا، ما كان لي أن أتخلى عنها ليلة أمس، تلك الليلة التي ستظل نقطة سوداء في حياتي.

_ احنا خلاص هنتجوز يا سلمى، ومش هيهمني كلام الناس، أنا اتعودت عليه خلاص.

_ هتتجوزني شفقة يا علاء مش كده؟ أنا مش هرفض الجواز منك حتى لو شفقة؟ مش هرفض اللحظة اللي تمنيتها طول عمري حتى لو كانت نيتك تعمل خير في بنت مغلوبة على أمرها عارف ليه يا علاء؟ لأني لسة شايفاك زي أول مرة اتقدمت لي فيها، كل ما أشوفك بنسى المصيبة اللي أنا فيها، بس انت شايفني بشكل تاني خالص يا علاء، و بردو موافقة وإن كنت موجوعة جدا إننا نكلل حبنا بجواز ستر العار يا علاء.

انفجرت في البكاء، واحتضنتها حتى كدت أن أعتصرها، لم أستطع سماع نبرات الحزن من سلمى، ولا أطيق كلمات الهوان والاستعطاف تتوالى على لسان الإنسانة التي رأيت فيها أمي.

_ متقوليش كده يا سلمى، أنا هتجوز البنت اللي حبيتها واتمنيتها، هتجوز الانسانة اللي لو شفتها بتغلط هكدب عينيا اللي شافتها، و هصدق ثقتي فيها وإخلاصها ليا.

_ مشكلتك إنك مش بتعرف تختار كلام تفصل بيه بين المشاعر الحقيقية وشعور المجاملة يا علاء.

_ مشكلتك انك بقيتي بايخة من يوم الفيلم الهندي اللي احنا بنصوره ده يا سلمى.

ابتسمت سلمى ابتسامة خفيفة وحاولت الهروب ببصرها بعيدا

_ يعني لما ربنا هداكي وهتضحكي، عايزة تخبيها، إيه يا عم القسوة دي، اضحكي بقى علشان أنا جايب لك مفاجأة بمليون جنيه.

_ مش عايزة مفاجآت.

_ خالي زاهر هيدفع لنا مليون جنيه، وهيكتب لنا شقة في البرج بتاعه الجديد، نتجوز فيها.

_ خالك زاهر مين ده؟ بتاع مصنع الجرانيت؟

_ قصدك مصانع مش مصنع واحد، وقال لي هدفع لك مليون جنيه واكتب لك شقة، وتتجوز في أقرب فرصة.

_ وانت علشان كده وافقت تتجوزني.

_ وانتي تعرفي عني كده يا سلمى؟

_ أنا معرفش بئي.

_ انتي تعرفي إني ممكن أتجوزك علشان أستفيد بعرض خالي زاهر.

_ لا طبعا يا علاء مستحيل، بس إنت وافقت عليه اهو.

_ احنا في أمس الحاجة للفلوس، و للشقة كمان، وأنا ليا سنتين منتظر اللحظة دي، وانتي كمان

_ والمصيبة اللي احنا فيها دي نسيتها؟

_ المصيبة دي ان شاء الله ليها حل عند ربنا سبحانه وتعالي، وأكيد الدكتور النهاردة هيفهمنا كل حاجة، أنا واثق فيكي جدا يا سلمى، و لو دي حالة خارقة للعادة يبقي حظنا إنها تيجي في طريقنا احنا الاتنين، يبقي نتقبلها بصدر رحب احنا الاتنين، وأدينا هنستفيد بمليون جنيه وشقة فاخرة على ذمة المصيبة اللي بتقولي عنها دي.

_ انت انسان عظيم يا علاء.

_ انت كل حاجة ليا في الدنيا دي يا سلمى.

تركت سلمي وانصرفت عائدا إلى منزلي بعد ما اتفقت مع خالد أن نتقابل سويا بعد العصر حتى نعرض سلمى على استشاري النساء والتوليد لنرى ما يقول فيها.

اتصلت بخالي زاهر وأخبرته أني موافق على ذلك العرض الذي قدمه لي صباحا، لأنقذ ما يمكنني إنقاذه من سمعته وسمعة ولده، تفاديا لخسارة منصبيهما الذين يسعيان إليهما، و حدد لي موعدا قبل العصر لزيارته في مكتبه بالشركة لأستلم الشيك، وعقد تنازل عن الشقة عليه توقيعه وشهادة اثنين من موظفي الشركة.

خرجت من شركة خالي زاهر إلى أقرب فروع بنك مصر وقمت بتحويل المبلغ من حساب خالي إلى حسابي الذي أودعت فيه ألف جنيه منذ فترة لربما أحتاج يوما ما إلى وثيقة حساب بنكي، كمن يعمل لنفسه جوازا للسفر وهو لا ينوي الرحيل، وها أنا ذا قد احتجت للحساب البنكي لأودع فيه رصيدي الجديد بقيمة مليون جنيه .

عدت إلى سلمى وخالد في الموعد المحدد وأنا أطير من سعادتي، لم تطأ قدميَّ الأرض من فرحتي.

لقد صدقت تلك المقولة التي كنا نكررها دون أن نتذوقها «من المِحَن تأتي المِنَح» فقد أتتني منحة بمليون جنيه من محنتي التي أعيشها وأتجرع مرارتها أنا وسلمى.

وجدتهما ينتظراني في مدخل باب البيت، وكان خالد ينوي أن نركب سيارة الميكروباص من أمام الشارع الذي يسكناه، ولكني رفضت رفضا باتا أن تمشي سلمى في الشارع حتي تبلغ آخره، ثم تركب سيارة يعرفها كل من فيها، فتراقبها العيون الشامتة، وتطولها الألسنة المتسلطة، وتنال منها تلك الأفواه القذرة التي لم تتوقف عن النيل منا حتى الآن.

طلبت من خالد أن يأتي بسيارة تاكسي تصحبنا من هنا حتى موقف الميكروباص الرئيسي لنركب من هناك دون أن يرانا من يعرفنا فيعاقبنا بعينيه عقابا غير مبرر.

وصلنا إلى موقف الميكروباص وركبنا بين أناس أغراب لا نعرفهم ولا يعرفونا، فاطمأنت نفسي أنَّا لن نسمع ما يزعجنا طول الطريق.

تحركت السيارة، وبدأ الركاب في تبادل الأحاديث، انتبهنا للسيدات الثلاث اللاتي تركبن في المقعد الأمامي، فقد كانت أحاديثهن شيقة، وصوتهن عالي يجبرنا على الانصات إليه.

_ يعني انتي متخيلة يا أم هاني إن مرتبه اللي بيقبضه من شغله في وزارة الشباب والرياضة ده يخليه يبني عمارة تسع أدوار في سنة، انتي مستوعبة الكلام ده؟.

_ أنا مش بقول مرتبه يا أم منة، بس أنا قصدي إنه بياخد اكراميات، وبدلات، وبيسافر كتير تبع الشغل وبياخد بدل سفر.

_ انتي طيبة أوي يا أم هاني، قوليلها انتي يا مدام فيفي العمارة دي بناها منين.

_ واحنا هنشغل بالنا بيه ليه يا أم منة خليه في حاله.

_ بس قوليلها الفلوس دي بيجيبها منين.

_ يا أختي ده بياخد رشاوي من الأندية بتاعت الكورة الكبيرة علشان القرعة والكأس والحاجات اللي بيعملوها دي، وكل نادي بيدفع له مليون جنيه.

_ والأندية هتدفع له؟ وانتي عرفتي الكلام ده منين يا مدام فيفي؟

_ أنا ابني عضو في النادي في فريق السباحة وعارف كل الحركات دي.

_ يعني ابنك في فريق السباحة وعارف كل اللي بيحصل ده يا مدام فيفي؟

_ يا أم هاني الكلام اللي بقولك عليه ده حقيقي عايزة تصدقي صدقي.

_ أنا مش بكذبك يا حبيبتي، بس أنا اللي أعرفه عنه غير كده، بس مش عايزة اتكلم عن حد.

_ لا قولي يا حبيبتي ما احنا لازم نعرف الحقيقة.

_ هو بيتاجر في المخدرات، بيروح النادي نبطشية بالليل ويسهر هناك، ومخبي المخدرات تحت العوارض بتاعت النادي، بييجوله العيال الفاشلين اللي بيشربوا حشيش، بيشتروا منه لحد الصبح.

_ لا لا لا دي حاجة متتصدقش أبدا يا أم هاني، ده مدير نادي، مش بيروح نبطشيات بالليل خالص.

_ يعني هو مدير نادي الحتة بتاعتنا هيكون له تدخل في قرعة الكأس والكورة مع الأندية الكبيرة يا مدام فيفي، كلامك انتي اللي ميتصدقش.

اندمجت في حديثهم، ورأيت أن الركاب في حالة صمت ويتابعوهن، وينظر إليهن رجل أصلع تحت أنفه شنب أبيض كبير، فتوجه إليهم يحدثهم.

_ انتوا بتتكلموا عن عمارة حسين الصعيدي اللي بناها ولا إيه؟

_هو في حد غيره الحتة كلها بتتكلم عنه وعن العمارة اللي بناها السنة دي.

_ الراجل ده بيتاجر في العملة، بيروح الصعيد ياخد الدولارات واليوروهات من السياحة في بلدهم في الأقصر، ويرجع بعد كل فترة يوزعها هنا في القاهرة، وبيكسب فيها.

_ أيوة يا خويا كلامك صح، ده معاه بزارين في الغردقة.

_ لالا يا مدام البزارات دي مش بتاعته لوحده ده شريك فيها.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وأنا أنظر اليهم، وقد تناوبوا نهش ظهر الرجل الغائب المسكين فاتهموه بالرشوة، واتهموه بالتجارة في المخدرات، وأخيرا يتهمه أحدهم بالتجارة في العملة وكلها قضايا جنائية تكفي لإخفائه في غياهب السجون ما تبقي من حياته.

و هنا وقف السائق في منتصف الطريق بقوة، واتجه ناحيتهم غاضبا، يكلمهم بلهجة شديدة.

_ بصوا كده يا جماعة علشان تبطلوا الهري ده كله، حسين الصعيدي يبقى صاحب العربية دي اللي انتوا راكبينها، أقسم بالله الراجل ده من المنيا مش من الأقصر علشان تقولوا بياخد العملة من السياحة، و هو شغال شئون عاملين في مركز الشباب، مش مدير النادي الرياضي بتاعنا علشان متقولوش انه بياخد رشوة من الأندية الكبيرة، و النادي بتاعنا مش بيلعب في دوري الدرجة التالتة حتى.

_ وانـت مالـك محمـوق علينـا كـده يـا أسـطي، مـا تبـص عـلى طريقـك.

_ مـا انتـوا نازلـين حقـد ع الراجـل، وممكـن الحقـد ده ياجـي في العربيـة بتاعتـه، نعمـل بيهـا حادثـة كلنـا.

_ يـا سـاتر يـارب، فـال اللـه ولا فالـك، امـشي يـا عـم ربنـا يسـتر طريقـك.

_ يـا ريـت نوقـف كلام في الموضـوع ده، خـلي ربنـا يسـهل لنـا طريقنـا.

أعجبنـي موقـف السـائق وتصرفـه الـذي أظهـر كـذب الثـلاثي النسـائي وذلـك الأصلـع ذو الشـنب الأبيـض الذيـن مزقـوا جسـد الرجـل في غيابـه، ولكنـي أعلـم تمامـا أنهـم لـن يأخـذوا العـبرة مـن ذلـك الموقـف أبـدا، حتـى تحـرك الرجـل الأصلـع ناحيـة السـائق وحدثـه بصـوت عـالي.

_ مـا تقـول لنـا يـا أسـطى هـو جـاب الفلـوس دي منـين، ده سـاكن مـا بيننـا مـن زمـان، مشـفناش عليـه النعمـة دي.

_ دي لعبـة آثـار كبـيرة يـا عـم الحـاج، اشـترك فيهـا وأخـد نصيبـه، وطلـع لـه فيهـا عشريـن مليـون جنيـه.

يـا للصاعقـة! حتـي أنـت أيهـا السـائق تشـترك معهـم في تأليـف مصـدر لمـال الرجـل الغائـب عـن الحـوار، ليتنـا نهتـم بشـئوننا ونـترك شـئون النـاس لهـم، فلسـنا مـن يملـك حسـابهم.

وصلنـا إلى موقـف الميكروبـاص، ونزلنـا جميعـا مـن السـيارة، وفوجئنـا بأحـد السـائقين قـادم ناحيتنـا مسرعـا ينـادي عـلى السـائق.

_ يا أسطى بيشو، يا أسطى بيشو.

_ في إيه يا حمام.

_ سمعت بالي حصل للعمدة حسين الصعيدي صاحب العربية بتاعتك.

_ ماله حصل له ايه؟

_ العمارة بتاعته اللي في الحتة بتاعتكم وقعت، ولما سمع الخبر وقع من طوله، وحاليا محجوز في المستشفى.

يا إلهي على ذلك الخبر المؤلم، قد أوجع كل المحيطين بي، تألموا على رجل لا يعرفونه، ولم نسمع عنه شيئا سوي في تلك السيارة.

تقدم رجل عجوز يبدو متماسكا، وسأل حمام:

_ والعمدة حسين أخباره ايه دلوقتي يا حمام؟

_ والله يا عم الحاج هو في العناية المركز بين الحياة والموت.

_ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الراجل باع أرض أبوه اللي في الصعيد بالقيراط لحد ما خلصها بيع علشان يبني العمارة دي، ويعيش على ريعها، حسبي الله ونعم الوكيل في كل عين شافتها واتكلمت عنها.

يا للهول! ما الذي أسمعه، العمدة حسين الصعيدي لم يكن مرتشيا، ولا تاجر مخدرات، ولا مروج للعملات، ولا حتى تاجرا للآثار، ولكنه باع أرض والده، خسر كل شيء، وألسنة الناس لا ترحمه، ألسنة الناس وعيونهم دمرت ما بناه، وقتلته في سمعته، ثم جسده.

أف لهذا المجتمع الذي اعتاد اختراع الأكاذيب والتهم الباطلة ليصدقها ثم يتداولها على أنها حقيقة.

كنت أعتقد أن حارتنا وحدها هي المتردية، وأننا فقط من يتعرضون لتلك الألسنة لتنال مني تارة، ومن سلمى أخرى، لكنه وباء قد تفشى في كل مكان، وأصاب كل المناطق والحالات.

مشيت بجوار سلمى وخالد وانا أقلب كفيَّ على ما سمعته من تلك الأقاويل الفاحشة بحق ذلك الرجل المسكين، بل تأثرت أكثر بما تعرض له نهاية المطاف، قد تهافتت عليه الألسنة وتطاولت عليه الأعين حتى أسقطته أرضا، و قد خسر كل شيء، هل سيعوضونه ما خسر؟ أم يحيون فيه ما تلف منه؟.

وصلنا إلى العيادة، فوجدناها مزدحمة على آخرها بالناس، فتقدمت ناحية الموظف المسئول وحجزت رقما بين الحالات المنتظرة خارج غرفة الكشف، وعدت للخلف خطوات وجلست جوار خالد وسلمى، يغلب علينا الصمت الرهيب الذي رافقنا منذ خروجنا من بيت سلمى حتى وصولنا للعيادة.

كنت أنظر إلى خالد وأنا في حيرة من أمره، كيف حاول تعليق المشنقة ليقتلها بعد تكبيل يديها ورجليها وتكميم فمها؟ كيف تجرأ على ذلك وقد كاد أن يصل لتحقيق ما أقدم عليه؟ لولا أن أرسلتني العناية الإلهية إلي هناك في الوقت المناسب لأنقذ الموقف وأبعث لها أملا في الحياة من جديد.

كيف تحول خالد فجأة إلى ذلك الأخ الطيب الهادئ الذي يطيع حركاتنا ويتبعها؟ كيف حمل نفس الأمنية التي نحملها بداخلنا؟ وهي أن نجد مخرج من تلك الأزمة دون أن نمس سلمى بسوء؟ بل كيف وصل إلى أن ينتظر معنا لحظة زواجنا التي كنا ولا زلنا ننتظرها؟.

توجهت إليه ببصري لأسأله وأقنع نفسي بأي إجابة يقولها، فوجدته ينظر بشغف على أحد أركان العيادة، وقام من مكانه متقدما ناحية أحد الزبائن الجالس أمامنا.

ياااااااااه!

إنه البلوكامين بكري، نعم هو بكري، رجل الشرطة الذي كان يجلس في ورشة ابراهيم الكاوتش يكذب عليهم و يدعي أنه رآني و معي سلمي في إحدى العيادات المشبوهة التي تقوم بعمليات الإجهاض بالمخالفة للقانون، ولكن ما الذي جاء به إلى هنا؟ ولماذا يبكي هكذا وكأنه يتمزق من الألم؟.

وقف معه خالد دقيقتين وتبادلا الحديث، وربت خالد على كتف بكري، ثم عاد إلينا واجما مهموما، مما جعل الفضول يتولد بداخلي لأعرف ما الذي أصابه.

_ حصل إيه يا خالد ماله البلوكامين بكري؟

_ بكري ربنا يكون في عونه يا أستاذ علاء والله.

_ يا ساتر يا رب، ليه بس ماله؟

_ مراته عندها سرطان في الرحم، واحتمال يتعمل لها عملية استئصال.

_ يااااارب .. ربنا يخفف عنها.

_ بكري ده حكايته حكاية، خبطتين على الرأس توجع.

_ خبطتين؟ ليه هو اتخبط في إيه قبل دي.

_ ده كان بلوكامين في المباحث، ومرتبه محترم، وفي يوم عيد المسيحيين اللي فات، كان المفروض يكون مع الحراسة على الكنيسة اللي ورا شارعنا دي، وبعد نص الليل ساب مكان الخدمة وساب زمايله ومشي، المهم جه التفتيش بتاع وزارة الداخلية على المكان، لقى زمايله وهو مش موجود، المفتش بيسأل عنه، محدش عرف يرد يقول هو فين، المفتش كان هيكتب له ترك عمل، أو يكتب له أي حاجة بسيطة من الجزاءات دي، لحد ما شافه جاي من

بعيد بيتطوح وسكران وشارب حشيش لما دايخ، وعمال يغني يا اما القمر ع الباب نور قناديله الباشا المفتش خرب بيته، واتحول للتحقيق واتفصل من الخدمة نهائيا.

_ يا سلام ع الأيام يا ولاد، يعني هو مفصول من الخدمة من يوم عيد المسيحيين اللي فات وبيكدب على الناس إنه شافني أنا وسلمى في عيادة مشبوهة من أيام قريبة، والناس الأغبياء مصدقينه، و شوف ربنا سبحانه وتعالى بيعاقبه ازاي في لحظتها بسرطان الرحم في مراته.

_ ايه قال عليك انت وسلمى؟

_ هحكيلك واحنا راجعين، يا ريت بس يتعظ ويبطل كلام عن الناس.

نظرت ناحيته فوجدته يراقبني بعينين دامعتين، هربت من عينيه حتى لا أعذبه بنظراتي، فلا أتعمد تذكيره بما ارتكبه في حقي دون أن يعرفني ليصيبني في عرضي.

طلبت من سلمى أن نقف بالخارج بعيدا عن زحام العيادة، حتى نستطيع التقاط بعض الأنفاس بعيدا عن هذا الجو الكئيب الممتلئ بالمرضى، فعظم تلك الحالات لم تأتِ للمتابعة الدورية للحمل، أو للكشف عن الحمل من عدمه، فتلك الأمور يترددوا فيها على الأخصائيين وحديثي التخرج، أما تلك الأعداد في عيادات الاستشاريين ليس وراءها سوى حالات خطرة تعاني من شيءٍ ما، أو تتخوف من شيء ما، ليحملوا بين ظهرانيهم آلاما نفسية وأخرى عضوية.

تركنا خالد بالعيادة ينتظر موعدنا في الكشف لينادي علينا، ووقفنا في تلك البلكونة المستديرة المطلة على الشارع، و كان المنظر

رائعا من الطابق الحادي عشر.

_ يا سلام يا سلمى ما تكون شقتنا اللي في برج خالي زاهر زي كده.

_ انت فعلا وافقت على الفلوس والشقة علشان تلم الموضوع من الفضايح؟

_ لا يا سلمى، أنا بستغل الفرصة اللي منحها لي إنسان مش بيبكي غير على مصلحته، وجاي يعمل عليا أنا شريف وبينقذ سمعته بفلوسه، أبقى مغفل لو رفضتهم.

_ أنا تعبتك معايا يا علاء، بس والله ما بيدي، أنا زيي زيك في الورطة دي.

_ عيب عليكي يا سلمى متقوليش كده، ده أنا مش عارف أودي وشي منك فين بسبب اليوم اللي غبته عنك، مكسوف منك والله، ورسالتك لسة بتخرط فيا.

_ كنت هموت والله يا علاء فيها اللحظة دي ، الدنيا كلها كانت ضدي وبتتآمر على قتلي وبردو مكنش يهمني، حتى أخويا خالد اللي كان يشك فيا من اللحظة الأولي، مكنش فارق معايا، كنت حاسة وجودك جنبي وثقتك فيا كأنها جبل أكبر منهم كلهم بيسندني، وفي لحظة يا علاء لقيتك بتبعد، ولما عرفت تشخيص الدكتور من خالد اتجننت، قلت ده أكيد سبب بعدك عني، أكيد ده اللي خلاك تتجاهل وجودي فجأة.

_ أنا آسف جدا يا سلمى، غلطة ومش هتكرر، مهما كان التشخيص اللي هنسمعه دلوقتي مش هسيبك.

_ تسلم لي يا علاء، كانت هتصعب عليا نفسي لو مُت من غير ما نتجوز وأبقى جنبك في بيتك حتى لو شهر واحد.

_ ألف بعد الشر عليكي يا نص روحي.

_ مهما كان كلام الدكتور يا علاء هفضل نص روحك؟

_ مش عايزين نسبق الأحداث يا سلمى.

_ امممممم معندكش إجابة ولا إيه؟

هنا توقفت وسألت نفسي ماذا لو قال الدكتور أنها حامل في شهرها الثاني أو الثالث؟ والتشخيص تلك المرة نهائي لا يقبل الطعن عليه، فهل أثبت على موقفي وأتمم الزواج؟ و ماذا بعد الزواج؟ هل تلد سلمى في الشهر السادس أو السابع؟ وإن أنجبت طفلا فأي أب ذلك الذي أسجله باسمه؟ من والد الطفل الآن رغم براءة سلمى من الخطيئة، وأنا على يقين من ذلك؟.

تذكرت تشخيص الطبيب لحمل العذراء حينما قال أنه قد ينتج عن قذف دون إيلاج، أو حتى عن إيلاج وعملية كاملة ولكن الغشاء كان مطاطيا، فهل يا ترى سيقول الطبيب أن شيطانا قذَف فيها؟.

ماذا لو كان الغشاء مطاطيا؟ هل يساورني شك فيها؟ وإن لم يكن مطاطيا حتى، هل أشك في قيامها بعملية جنسية ناقصة؟ مالي أثق فيها هكذا؟ هل دفعتني أموال خالي زاهر لأتمم زواجي بها قبل الوقوف على الحقيقة؟ أم أن ذلك إشفاقا عليها رغم كثرة أحاديث الناس التي بدأوا يبتكرون أحداثها من مخيلاتهم؟.

بدأت سلمى تنظر لي دامعة بسبب تأخري عن الإجابة، وكأنها قرأت أفكاري التي تراودني الآن، بدا عليها معرفة ما يدور بداخلي من خلال ملامحي وسكوتي.

_ إيه يا علاء، مفيش إجابة ولا إيه؟.

نظرت إليها ودموعي تنهمر وشعرت لأول مرة بالعجز عن الرد،

مخاطبتي لنفسي في تلك الحالة كانت أخطر من زيارة الشيطان.

_ أقسم بالله يا علاء عمري ما عرفت حد غيرك، ومش عارفة المصيبة دي جات لي منين.

نظرت في عينيها فقرأت فيهما صدقا أعرفه، براءة أعتبرت نفسي أكثر من يعرفها ويؤمن بها.

_ وأنا مش هسيبك يا سلمى، أنا واثق إنك متغلطيش، و مهما قال الدكتور أنا جنبك.

ابتسمت سلمى حتى انفرجت أساريرها، ودخلت الدموع فمها، فاحتضنتها داخل العيادة.

أحسست من بكاءها أني احتضن طفلة يتيمة فقدت والدها، طفلة تنتظر مستقبلا أسودا لا تعرف آخره، طفلة تبحث عمن يعولها ويحميها من مخاطر الحياة، طفلة تستشعر الغربة بين أناس لا تعرفهم، وتبحث عن أقرب الأرحام ليحتضنها فيشعرها أن لها عزوة تقضي على وحدتها.

_ حاسة إني داخلة على جحيم يا علاء.

_ جحيم ايه يا بابا وأنا معاكي؟

_ بابا! يااااااه! أد ايه الكلمة دي بتخليني طفلة في حضنك؟

_ يااااااااه! لو خالد طلع وشافنا في أحضان بعض، هيصدق إن شكوك عمه رأفت كلها في محلها، والمرة دي ثورته هتكون أقوى من عضلاتي وهيحدفنا من هنا.

هنا أطلقت سلمى عدة ضحكات متتالية وضحكت معها، وخرج علينا خالد من العيادة بالفعل ينادينا فقد أخبره التمرجي أنه قد حان موعد دخول سلمى لغرفة الكشف.

نظرت في وجهها فرأيتها ترتعد خوفا تتقدم بخطوات مهتزة،

كأنها تتقدم ناحية مقصعة الإعدام، وكأن الطبيب هو ذلك الجندي الغليظ مسئول تنفيذ الحكم فيها.

قلبها يصدر صوتا في تتالي نبضاته، وصدرها يعلو ويهبط كتلك البالونة التي ينفخ فيها طفل صغير، فتمتلئ هواءً تارة، وتفرغ هواءها أخرى.

كنت من قبل أنفخ فيها من طمأنينتي هدوءً يسكن خوفها، وأشعرها بأمان وجودي حتى لا تخشى شيئا، بل كنت أفرغ من قوتي على ضعفها فتبدو أكثر ثباتا، ولكني الآن أمتص من خوفها رعبا يتضاعف بداخلي، وأحتسي من سخونة أحاسيسها الملتهبة بنار الترقب حساءً يلهب كياني، جعلني أتمنى لو يموت الطبيب قبل توقيع الكشف الطبي عليها، أو يموت أحدنا فتنشغل الدنيا بموته، بل أموت أنا، حتى أحقق حلمي في الهروب من تلك الموقعة.

دخلنا على الطبيب، وقررت تلك المرة ألا أخرج من غرفة الكشف وإن تكشفت سلمى أمامي فتلك المصيبة التي نترقبها أكبر مما يدفعني للبقاء بعيدا عن أريكة فحصها.

لم أكن أنظر في جسد سلمي، ولا حتى وجهها كما اعتدت النظر إليها لأبعث فيها روح الطمأنينة، ولكني تلك المرة كنت أنظر في عينيِّ الطبيب، لأقرأ تشخيص الحالة قبل أن ينطقه لسانه.

وجدته يندهش، ويعيد الكشف مرة تلو المرة، وينظر في التلفاز مرات عديدة، حتى بدا الخوف يحتل مكانه في وجه خالد هو الآخر، خالد الذي تحول فجأة إلى إنسان يشعر مثل شعورنا، ويرق قلبه لأخته ويتمنى نجاتها من كل ما أصابها.

رفع الطبيب رأسه ونظر إلينا قائلا:

_ مين اللي قال لكم إن الآنسة حامل؟

_ تلات دكاترة يا دكتور.

_ تلات دكاترة ولا تلات محششين مسطولين؟

بـدأت الدهشـة تأخـذ مكانهـا في وجوهنـا، خالـد يفتـح فمـه كالحائـر، لا يعـرف بمـاذا يشـعر، هـل يفـرح؟ أم يتعجـب؟ أم يسـتنكر؟ حتـى سـلمى نفسـها التـي كانـت آيلـة للسـقوط منـذ قليـل، قامـت منتصبـة تنظـر في وجهـي أنـا لتسـتفسر عـن تشـخيص الطبيـب، ولم تنظـر إلى الدكتـور نفسـه.

_ معلش يا دكتور ممكن تفهمنا ايه اللي شفته.

_ الآنسة زي الفل ومش حامل، و مش بتعاني من أي حاجة.

_ طاب وكلام الدكاترة دي تسميه ايه؟

_ أنـا معرفـش دكاتـرة ومليـش دعـوى بحـد، أنـا استشـاري نسـاء وتوليـد، وتلاميـذي أطبـاء كبـار متقوليـش كلام الدكاتـرة ولا كلام الممرضـين.

_ حضرتـك غنـي عـن التعريـف يـا دكتـور، بـس معلـش اسـتحملني، في تـلات أخصائيـين قالـوا انهـا حامـل.

_ عـلى مـا اذكـر إنكـم قلتـولي إن أول حـد قـال لكـم كـده مـمارس عـام في المستشـفى.

_ فعلا يا دكتور حصل.

_ للأسـف الشـديد يـا ابنـي، أنـا وزمايـلي مـن مختلـف التخصصـات بنسـتقبل شـكاوي كتـير مـن تشـخيصات الأطبـاء الشـباب، أنـا منكـرش إن فيهـم أطبـاء كويسـين جـدا، بـس أكـتر مـن 25% مـن الأخصائيـين والممارسـين، ليهـم تشـخيصات خاطئـة وبينتـج عنهـا بـلاوي، لا سـيما الفـترة الأخـيرة دي، عمومـا ألـف مـبروك عليكـم بـراءة بنتنـا سـلمى، و دلوقتـي أقـدر اقـول لكـم اتفضلـوا.

كانت الفرحة في وجه خالد وسلمى آنذاك لا توصف، والطبيب يقف منتظرا خروجنا، فحالتنا لا تحزنه ولا تسعده، فكم من حالة مرت عليه بها العجب العجاب.

خرجنا من العيادة ونحن في قمة السعادة بظهور البراءة، ولكن من ينقل خبر براءتنا من كل تلك القصص التي تداولها نشطاء كلام الناس؟ كان لا بد لنا من القيام بأي تصرف ينشر ذلك التشخيص على الملأ حتى يعرف الناس أنهم ظلمونا بكلامهم، وليسمع منا من سمعوا عنا، أن ما سمعوه محض أكاذيب، وليعرفوا أن من روجوا لها لم يكونوا صادقين حينها، ولن يصدقوا أبدا.

ركبنا السيارة في طريق العودة نفكر كيف نمحو كل ما قيل عنا، وهنا باغتتني سلمى بسؤالها

_ هو ليه جُرم المرأة أشنع من جُرم الرجل؟

فاجئتني سلمى بذلك السؤال ولكنها صاحبة الحق في البحث عن إجابة له، لإن الألسنة لم تتركها، بل تطاولت عليها واعتبرتها المجرمة الوحيدة تارة، والشريك الأكبر معي في الجريمة تارة أخرى، وكانت صاحبة نصيب الأسد في كل الاتهامات، فسألت نفسي هذا السؤال وسرحت بعيدا عن الحوار، فوجدتني أجيب نفسي بإجابة أقنعتني، رددها عليَّ صدي صوت خيالي تقول:

_ لأن المرأة قطعة شفافة من الماس، تخدشها الإحتكاكات، و قد تترك فيها بعض البصمات لو تقاذفتها الأيدي.

أما الرجل فهو خزينة حديدية تحتضن تلك الماسة، حتى إذا ما احتضنت الخزينة ماسة أخرى لا يضيرها في شئ.

و هذا لا يعني أن الخطأ مباح للرجل ومحرم على المرأة ، فخيانة أحدهما للآخر جريمة بشعة مهما كانت علاقتهما،

ومهـما كان شـكل الربـاط الواصـل بينهـما فالخيانـة في ذاتهـا جريمـة. ولا أقصـد بالخيانـة هنـا ذلـك الجـرم الأعظـم .. كلا بـل هـو كل احتكاك يرفـض أحـد طـرفي العلاقـة رؤيـة الآخـر عليه.

ولكـن جـرم الرجـل أخـف وطـأة، فالخزينـة الحديديـة لا تعكـر هيكلتهـا القبضات. أمـا الماسـة فتحتـاج إلى إعـادة تلميـع مـن أرق اللمسـات.

قـد يفهـم البعـض أنهـا نظريـة المجتمـع الذكـوري الـذي يعطـي الرجـل حـق الخطـأ مـع الحصـول عـلى مسـامحة المـرأة، ولكنـه يسـلب حـق المـرأة في الخطـأ مـع حصولهـا عـلى نفـس السـماح، باعتبـاره الأقـوى وهـي الضعيفـة المنكسرة الواقـع عليهـا إهانـة ذلـك المجتمـع.

_ ساكت ليه يا علاء؟

_ مش عارف أقولك إيه يا سلمى.

_ قـول لي رأيـك، هـو ليـه البنـت لـو غلطـت نفـس غلطـة الراجـل، بيكـون عقابهـا أشـد وسـمعتها أكـثر عرضـة للتشـويه، مـع إن الراجـل بيكـون عـادي جـدا ولا كأنـه غلـط.

_ مفيـش حاجـة اسـمها ولا كأنـه غلـط يـا سـلمى، بـس تقـدري تقـولي إن البنـت زي القـماش الغـالي مينعفـش نبهدلـه ونغسـله ونرجع نبهدلـه ونغسـله علشـان قيمتـه متنزلـش، لكـن القـماش الخشـن بيتعـرض للاتسـاخ، وبنقـول عليـه وسـخ وبنغسـله، لكنـه مـش بيتأثـر بتكـرار الغسـيل زي النـوع الغـالي، بـس ده ميمنعـش انـه لمـا يتوسـخ بنقـول عليـه وسـخ، ولـو اتسـاخه اتكـرر يـا سـلمى، المجتمـع بيعزلـه عنـه بطـرق مختلفـة.

_ بردو النظرة دي ظالمة جدا للمرأة يا علاء

_ لكنها موجودة و مقنعة يا سلمى.

هز خالد رأسه ونظر إلينا

_ طاب ممكن نشوف لنا حل للي بنفكر فيه.

_ الحل الوحيد إننا نقدم شكوى في الدكتورة ناهد والدكتور راشد والممارس العام بتاع المستشفى، ولما الناس تعرف سبب الشكوي، هيعرفوا إن التشخيص الخاطئ اللي شخصوه لسلمى كان غلط، وانها طلعت مش حامل ولا حاجة.

_ دايما دماغك حاضرة يا علاء، وفيها حلول لكل المشاكل، ربنا يخليك ليا يارب.

_ تسلمي لي يا عمري.

_ ما تراعوا وجودي، و بلاش فرحة التشخيص تنسيكم إنكم لسة مخطوبين.

_ هانت يا خالد وهنتجوز أخيرا، بس انت تنشر بين أصحابك اننا اشتكينا الدكاترة دول لنفس السبب.

وصلنا إلى الحارة ونزلنا من السيارة ودخلنا على أم خالد وأبو خالد، فوجدناهم ينتظرونا على أحر من الجمر، كنت أظن أن خبر براءة سلمى من الحمل سيطير إليهم ليصل قبلنا، كما طار خبر الحمل إلى مسامع خالد، فوجدناه ينتظرنا بالمرصاد ليقدمنا للمحاكمة.

وجدناهم يتوقعون أحد الأمرين، إما نتيجة صعبة أو نتيجة مريرة، ولم يخطر ببالهم أبدا أن النتيجة هي البراءة، هي السلامة، هي قطع ألسنة المتكلمين والمتطاولين على الأعراض بالقصص الكاذبة.

قدمنا الشكوى وأحيل الأطباء الثلاثة للتحقيقات، واستدعينا أولئك الشهود الذين سمعوا الأخبار بالمستشفى والعيادة ثم

نشروهـا بالخـارج، وأقـروا بـأن طبيـب المستشـفى والدكتـور راشـد أكـدوا حمـل سـلمى، وشـهد الدكتـور راشـد بـأن الطبيبـة ناهـد السـعدي هـي الأخـري أكـدت لـه حملهـا وعذريتهـا.

كان تقريـر استشـاري النسـاء والتوليـد كافيـا لمعاقبتهـم مـن وزارة الصحـة ونقابـة الأطبـاء، وقـد تـم تهديدهـم بغلـق عياداتهـم، وإبعـاد المـمارس العـام عـن الاحتـكاك بالمـرضى نهائيـا.

وتـرك أهـالي المنطقـة الأحاديـث حـول علاقتـي بسـلمى، واتجهـوا اتجاهـا كليـا للحديـث عـن أخطـاء الأطبـاء مـن ذوي التخصصـات المختلفـة، فمنهـم مـن قـال أن طبيـب الباطنـة قـام بعـلاج والدتـه مـن مـرض السـكري لمـدة عـام كامـل، ثـم اتضـح أنهـا لم تعـاني مـن السـكري في حياتهـا أبـدا.

حتـى البلوكامـين بكـري قـال ان والـده تعـرض لحالـة نفسـية صعبـة، فعالجـه طبيـب الباطنـة بأنـه ضغـط مرتفـع، وشـخصها طبيـب العظـام أنهـا حالـة هشاشـة في العظـام، وطبيـب المـخ والأعصـاب أنهـا حالـة تصيـب الأعصـاب، حتـى اتضـح لهـم مؤخـرا بأنهـا حالـة نفسـية قـد تسـببت لـه في كل ذلـك.

قمنـا بتحديـد موعـد الزفـاف، ودعونـا كل الأصدقـاء و الجـيران، وتعمدنـا دعـوة أصحـاب الألسـنة الكاذبـة الذيـن عزفـت ألسـنتهم أروع المقطوعـات في حكايتنـا، عـلى آذان النـاس الصاغيـة تسـمع وتصـدق فتندهـش وتسـب وتشـتم في أخلاقنـا.

لتكـون في النهايـة محنـة حمـل سـلمى، خطيبتـي العـذراء، بمثابـة المنحـة التـي كشـفت لي عـري ذلـك المجتمـع العاهـر فكريـا، والـذي يعتـزل فيـه سـليمي النيـة في خنادقهـم لا يخرجـون.

كشـف لي عـن ضعـف خـالي المليونـير ذو النفـوذ القـوي، والـذي خـاف عـلى سـمعته مـن حكايتـي مـع سـلمى.

كشـف لي عـن كـذب الكثيريـن ممـن يحيطـون بي، بـل كشـف لي، سـذاجة الباقـين الذيـن يسـتمتعون بأكاذيبهـم ويتفاعلـون معهـا كأنهـا حقيقيـة يهتـز لهـا وجدانهـم.

كانـت منحـة ربانيـة، بعـد نجاحـي في التعاطـي مـع المحنـة، والصـبر عليها،حتـي فـزت بمبلـغ مـالي مـن خـالي زاهـر بـك والـذي سـاعدني عـلى الـزواج مـن سـلمى في فـترة قصـيرة لم أكـن أحلـم بهـا مـن قبـل.

ليـت النـاس تـترك النـاس في شـئونها، وتنتبـه هـي الأخـرى لشـئونها، حتـى تسـير مركـب الحيـاة، دون جـزر رمليـة تعـوق حركـة الجميـع.

ولكـن يحـضرني هنـا سـؤال .. حتـى متـى تتطايـر أخبـار الفاضحـة وتتثاقـل الأخبـار المفرحـة؟!

تمت بحمد الله